

مُخْتَصَرُ الْفَوَائِدِ

مختصر الفوائد

تأليف

الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قسيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

اختصره

أ.د. أحمد بن عثمان بن أحمد المزيد

أستاذ الدراسات الإسلامية - جامعة الملك سعود سابقاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المختصر

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد رسول الله ﷺ، وعلى آله وصحبه، ومن اقتفى أثره، وعمل بهديه، واستن بسنته، أما بعد:

فإن تسطير العلماء لخواطيرهم الإيمانية، وتقييدهم لملاحظاتهم العلمية، ومعايشتهم لحوادث الدهر، مع ما حباهم به ربهم من بصيرة نافذة، واحتكاك بالعلم والعلماء = إن اجتمعت في كتاب واحد كان مستودعاً للطائفة العلم، وطرائف المعرفة، والاستنباطات النادرة، والنكت الشاردة، وهو ما تحقق في كتاب «الفوائد» للإمام ابن القيم.

فالكتاب لم يكتبه ابن القيم دفعة واحدة، وإنما جاء صدىً لمراحل حياته، بحسب الخواطر والسوانح في ميادين العلم المتنوعة؛ فهو مترع بالفوائد في التوحيد، ودقائق التفسير، وشوارد السنة، وقواعد الفقه وأصوله، وإيضاحات لحكمة التشريع، وفرائد اللغة، والذوق السلوكي من المعارف الإيمانية، وأعمال القلوب التي تحبب الله إلى خلقه من خلال بيان آلائه ونعمه.

والمؤلف في كل هذه الميادين له قدمٌ راسخة، وتمكنٌ مشهودٌ ومقدرةٌ على صياغة هاتيك الفوائد والنوادر والمواعظ بأسلوبٍ أسر، وله نفسٌ إيمانيٌّ صادقٌ، وغوصٌ على معاني الحقائق، مع ربطه ذلك كله بأعمال القلوب وتزكية النفوس، منبهاً على ضرورة الإخلاص والمتابعة وتعظيم الكتاب والسنة، ما يجعل منه خير معين لمن يريد طريق النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة، وقد أخذت كثيرٌ من هذه الفوائد طريقها إلى الذبوع والانتشار من خلال وسائل التواصل، وقنوات الإعلام الجديد.

وكتاب «الفوائد» هذا غير كتاب «بدائع الفوائد» للمؤلف أيضاً، وليس الأخير مختصراً له، وقد اشتهر كتاب «الفوائد» بهذا الاسم بعد طباعته، إذ لم يكن له ذكر قبل في مصادر ترجمة ابن القيم، غير أن أصله موجود ضمن كتاب «الكواكب الدراري» لابن عروة الحنبلي (٨٣٧هـ)، وهو من أعرف الناس بآثار ابن القيم.

ولتعظيم الاستفادة من هذا الكتاب المبارك ولتقريبه وتيسيره للقراء فقد سلّكنا في اختصاره الآتي:

- ١- الإبقاء على ألفاظ المؤلف دون زيادة أو تصرف.
- ٢- الاقتصار على صلب موضوعات الكتاب، وما يحتاجه عامة المسلمين فقط.
- ٣- إبراز فوائد الكتاب، والتخريج المختصر للأحاديث، وشرح غريب الألفاظ.
- ٤- الاعتناء بالإخراج الفني للكتاب وتنسيقه؛ لتسهيل قراءته ويقرب مقصوده.
- ٥- الاعتماد على أفضل الطباعات للكتاب، وهي طبعة عطاءات العلم، بتحقيق: محمد عزيز شمس.

٦- طبع الكتاب طبعات غير ربحية، وجعل حقوقه لكل مسلم.

والله نسأل أن ينفع بهذا المختصر كما نفع بأصله، وأن يكتب لنا ولمؤلفه وقارئه الأجر الجزيل، ولمن يشاركنا نشر هذا العلم النافع؛ من آباء وأمهات بين أسرهم، وأئمة في مساجدهم، ولمن يساهم في نشره في الوسائط الرقمية، وقنوات الإعلام الجديد.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أ.د. أحمد بن عثمان بن أحمد المزيد

أستاذ الدراسات الإسلامية - جامعة الملك سعود سابقاً

(Mokhtsrat100@gmail.com)

بسم الله الرحمن الرحيم

قاعدة جليلة: [كيف تنتفع بالقرآن؟]

إِذَا أَرَدْتَ الْإِنْتِفَاعَ بِالْقُرْآنِ فَاجْمَعْ قَلْبَكَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ وَسَمَاعِهِ، وَأَلْقِ سَمْعَكَ، وَاحْضَرْ حُضُورَ مَنْ يَخَاطِبُهُ بِهِ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ خِطَابٌ مِنْهُ لَكَ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وَذَلِكَ أَنَّ تَمَامَ التَّأثيرِ لِمَا كَانَ مَوْقُوفًا عَلَى مُؤَثِّرٍ مُقْتَضِيٍّ، وَمَحَلٍّ قَابِلٍ، وَشَرْطٍ لِحَصُولِ الْاَثَرِ وَانْتِفَاءِ الْمَانِعِ الَّذِي يَمْنَعُ مِنْهُ، تَضَمَّنَتِ الْآيَةُ بَيَانَ ذَلِكَ كُلِّهِ بِأَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَبْيَنِهِ وَأَدْلَاهِ عَلَى الْمَرَادِ.

* فقولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا﴾ إشارة إلى ما تقدّم من أوّل السورة إلى هاهنا، وهذا هو المؤثّر.

* وقولُه: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المحلّ القابل، والمراد به القلب الحيّ الذي يعقل عن الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا [يس: ٦٩-٧٠] أي: حيّ القلب.

* وقولُه: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أي: وجّه سمعه وأصغى حاسّة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرطُ التأثّر بالكلام.

* وقولُه: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد القلب حاضر غير غائب.

قال ابن قُتَيْبَةَ: اسْتَمَعَ كِتَابَ اللَّهِ وَهُوَ شَاهِدُ الْقَلْبِ وَالْفَهْمُ، لَيْسَ بِغَافِلٍ وَلَا

سأه، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وعيته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله.

فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر؛ حصل الأثر؛ وهو الانتفاع والتذكر.

فصل: [جمع سورة ق لأصول الإيمان]

وقد جمعت هذه السورة من أصول الإيمان ما يكفي ويشفي ويُغني:

- فإنها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوة والإيمان بالملائكة، وانقسام الناس إلى هالك شقي وفائز سعيد، وأوصاف هؤلاء وهؤلاء.
- وذكر فيها القيامتين: الصغرى والكبرى، والعالمين: الأكبر وهو عالم الآخرة، والأصغر وهو عالم الدنيا.

• وذكر فيها خلق الإنسان ووفاته وإعادته، وحاله عند وفاته ويوم معاده، وإحاطته سبحانه به من كل وجه، حتى علمه بوساوس نفسه، وإقامة الحفظة عليه يُحصون عليه كل لفظة يتكلم بها، وأنه يوافيه يوم القيامة ومعه سائق يسوقه إليه، وشاهد يشهد عليه، فإذا أحضره السائق قال: ﴿هَذَا مَا لَدَىٰ عِثْدٍ﴾ [ق: ٢٣] أي: هذا الذي أمرت بإحضاره قد أحضرته، فيقال عند إحضاره: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عِنْدٍ﴾ [ق: ٢٤]، كما يُحضّر الجاني إلى حضرة السلطان، فيقال: هذا فلان قد أحضرته، فيقول: اذهبوا به إلى السجن وعاقبوه بما يستحقه.

وهو سبحانه يُقرّر المعاد بذكر كمال علمه، وكمال قدرته، وكمال حكمته؛ فإن شبه المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع:

* أحدها: اختلاط أجزاء الأرض، على وجه لا يتميز ولا يحصل معه تميز شخص عن شخص.

* الثاني: أن القدرة لا تتعلق بذلك!

* الثالث: أن ذلك أمر لا فائدة فيه، وإنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنساني شيئاً بعد شيء هكذا أبداً؛ كلما مات جيل خلفه جيل آخر؛ فأما أن يُميت النوع الإنساني كله ثم يُحييه بعد ذلك؛ فلا حكمة في ذلك.

فجاءت براهين المعاد في القرآن مبنية على ثلاثة أصول:

• أحدها: تقرير كمال علم الرب سبحانه؛ كما قال في جواب من قال: ﴿مَنْ

يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩)

[يس: ٧٨-٧٩]، وقال: ﴿وَأِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهَا فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ

الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٦) [الحجر: ٨٥-٨٦]، وقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٤].

• والثاني: تقرير كمال قدرته؛ كقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ

عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١]، وقوله: ﴿بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ﴾ (٤) [القيامة: ٤]،

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦) [الحج: ٦].

ويجمع سبحانه بين الأمرين؛ كما في قوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) [يس: ٨١].

• الثالث: كمال حكمته؛ كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعِبَتِ

﴾ (٣٨) [الدخان: ٣٨]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ (ص: ٢٧) [ص: ٢٧]، وقوله:

﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٦) [القيامة: ٣٦]، وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا

وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكَ الْحَقُّ ﴿١١٦﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الجاثية: ٢١].

ولهذا كان الصواب أن المعاد معلومٌ بالعقل مع الشرع، وأن كمال الربِّ تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبُه، وأنه مُنَزَّهٌ عَمَّا يَقُولُهُ مُنْكَرُوه، كما يُنَزَّهُ كَمَالُهُ عَنْ سَائِرِ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ.

فائدة جلية: [في تسخير الله الأرض للإنسان]

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، أخبر سبحانه أنه جعل الأرض ذُلُولًا مُنْقَادَةً لِلْوَطْءِ عَلَيْهَا وَحَفْرِهَا وَشَقِّهَا وَالْبِنَاءِ عَلَيْهَا، وَلَمْ يَجْعَلْهَا مُسْتَصْعَبَةً مَمْتَنَةً عَلَى مَنْ أَرَادَ ذَلِكَ مِنْهَا. والمقصود: أنه سبحانه جعل لنا الأرض كالجَمَلِ الذَّلُولِ كَيْفَمَا يُقَادُ يُنْقَادُ، وَحَسَّنَ التَّعْبِيرَ بِمَنَاكِبِهَا عَنْ طَرَفِهَا وَفَجَّاحِهَا لِمَا تَقَدَّمَ؛ مَنْ وَصَفَهَا بِكُونِهَا ذُلُولًا، فَالْمَاشِي عَلَيْهَا يَطُأُ عَلَى مَنَاكِبِهَا وَهُوَ أَعْلَى شَيْءٍ فِيهَا، وَلِهَذَا فَسَّرتِ الْمَنَاكِبُ بِالْجِبَالِ، كَمَنَاكِبِ الْإِنْسَانِ؛ وَهِيَ أَعَالِيهِ.

* قالوا: وذلك تنبيهٌ على أن المشي في سهلها أيسرُ.

* وقالت طائفة: بل المناكبُ الجوانبُ والنواحي، ومنه مناكِبُ الإنسان لجوانبه، والذي يظهر أن المراد بالمناكبِ الأعالي، وهذا الوجه الذي يمشي عليه الحيوانُ هو العالي من الأرضِ دُونَ الْوَجْهِ الْمُقَابِلِ لَهُ، فَإِنَّ سَطْحَ الْكَرَةِ أَعْلَاهَا، وَالْمَشْيُ إِنَّمَا يَقَعُ فِي سَطْحِهَا، وَحَسَّنَ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِالْمَنَاكِيبِ؛ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ وَصْفِهَا بِأَنَّهَا ذُلُولٌ.

فَتَضَمَّنَتِ الْآيَةُ الدَّلَالََةَ عَلَى رَبوبيَّتِهِ ووَحْدَانِيَّتِهِ وَقَدَرَتِهِ وَحَكَمَتِهِ وَلُطْفِهِ،
والتذكيرَ بِنِعْمِهِ وإِحْسَانِهِ، والتحذيرَ من الرُّكُونِ إِلَى الدُّنْيَا واتِّخَاذِهَا وَطَنًا وَمَسْتَقَرًّا؛
بَلْ نُسْرِعُ فِيهَا السَّيْرَ إِلَى دَارِهِ وَجَنَّتِهِ، فَلِلَّهِ مَا فِي ضَمَنِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ
والتذكيرَ بِنِعْمِهِ، والحثُّ عَلَى السَّيْرِ إِلَيْهِ وَالِاسْتِعْدَادَ لِلِقَائِهِ وَالْقُدُومَ عَلَيْهِ، وَالْإِعْلَامَ
بَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ يَطْوِي هَذِهِ الدَّارَ كَأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ، وَأَنَّهُ يُحْيِي أَهْلَهَا بَعْدَ مَا أَمَاتَهُمْ
وإِلَيْهِ النُّشُورُ.

فائدة: [أسباب سعادة الإنسان]

للإنسان قوتان:

- قُوَّةٌ عِلْمِيَّةٌ نَظَرِيَّةٌ.
- وَقُوَّةٌ عَمَلِيَّةٌ إِرَادِيَّةٌ.

وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوته العلمية والإرادية:

* واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه
وصفاته وأفعاله، ومعرفة الطريق التي تُوصِلُ إليه ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه
ومعرفة عيوبها، فهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية، وأعلم الناس
أعرفهم بها وأفقههم فيها.

* واستكمال القوة العملية الإرادية لا يحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه
على العبد، والقيام بها إخلاصًا، وصدقًا، ونصحًا، وإحسانًا، ومتابعةً، وشهودًا
لمنته عليه، وتقصيره هو في أداء حقه، فهو مُسْتَحَقٌّ من مواجَهته بتلك الخدمة؛ لعلمه
أنها دون ما يستحقه عليه، ودون ذلك، وأنه لا سبيل له إلى استكمال هاتين
القوتين إلا بمعاونته، فهو مضطرٌّ إلى أن يهديه الصراط المستقيم الذي هدى إليه
أولياؤه وخاصته، وأن يجنبه الخروج عن ذلك الصراط، إمَّا بفساد في قوته العلمية

فيقع في الضلال، وإمّا في قوّته العمليّة فيوجب له الغضب.

فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور، وقد تضمّنتها سورة الفاتحة وانتظمتمّها أكمل انتظام:

• فإنّ قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٣﴾ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾

[الفاتحة: ٢-٤] يتضمّن الأصل الأوّل، وهو معرفة ربّ تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله، والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنی، وهي اسمُ الله والربّ والرحمن؛ فاسمُ الله متضمّن لصفات الألوهيّة، واسمُ الربّ متضمّن لصفات الربوبيّة، واسمُ الرحمن متضمّن لصفات الإحسان والجود والبرّ، ومعاني أسمائه تدور على هذا.

• وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥] يتضمّن معرفة الطريق الموصلة إليه، وأنها ليست إلاّ عبادته وحده، بما يُحبّه ويرضاه، واستعانتّه على عبادته.

• وقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦] يتضمّن بيان أنّ العبد لا سبيل له إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم، وأنّه لا سبيل له إلى الاستقامة إلاّ بهداية ربّه له، كما لا سبيل له إلى عبادته إلاّ بمعونته، فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلاّ بهدائيته.

• وقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٧] يتضمّن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وأنّ الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال، الذي هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب، الذي سببه فساد القصد والعمل.

فَأَوَّلُ السُّورَةِ رَحْمَةٌ، وَأَوْسَطُهَا هِدَايَةٌ، وَآخِرُهَا نِعْمَةٌ، وَحِظُّ الْعَبْدِ مِنَ النِّعْمَةِ عَلَى قَدْرِ حِظِّهِ مِنَ الْهِدَايَةِ، وَحِظُّهُ مِنْهَا عَلَى قَدْرِ حِظِّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، فَعَادَ الْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَى نِعْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَالنِّعْمَةُ وَالرَّحْمَةُ مِنْ لَوَازِمِ رَبُّوبِيَّتِهِ، فَلَا يَكُونُ إِلَّا رَحِيمًا مُنْعِمًا، وَذَلِكَ مِنْ مَوْجِبَاتِ إِلَهِيَّتِهِ، فَهُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ، وَإِنْ جَحَدَهُ الْجَا حِدُونَ، وَعَدَلَ بِهِ الْمَشْرِكُونَ.

فَمَنْ تَحَقَّقَ بِمَعَانِي الْفَاتِحَةِ عِلْمًا وَمَعْرِفَةً وَعَمَلًا وَحَالًا؛ فَقَدْ فَازَ مِنْ كَمَالِهِ بِأَوْفَرِ نَصِيبٍ، وَصَارَتْ عِبُودِيَّتُهُ عِبُودِيَّةَ الْخَاصَّةِ الَّذِينَ ارْتَفَعَتْ دَرَجَتُهُمْ عَنْ عَوَامِّ الْمُتَعَبِّدِينَ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فائدة: [كيف تعرف ربك؟]

الرَّبُّ تَعَالَى يَدْعُو عِبَادَهُ فِي الْقُرْآنِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ مِنْ طَرِيقَيْنِ:

- أَحَدُهُمَا: النَّظَرُ فِي مَفْعُولَاتِهِ.
- وَالثَّانِي: التَّفَكُّرُ فِي آيَاتِهِ وَتَدَبُّرُهَا، فَتِلْكَ آيَاتُهُ الْمَشْهُودَةُ، وَهَذِهِ آيَاتُهُ الْمَسْمُوعَةُ الْمَعْقُولَةُ.

* فَالنُّوعُ الْأَوَّلُ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤] إِلَى آخِرِهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ.

* وَالثَّانِي: كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، [محمد: ٢٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَذْكُرُوا بِآيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُوا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وَهُوَ كَثِيرٌ أَيْضًا.

قال تعالى: ﴿سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] أي أن القرآن حق، فأخبر أنه لا بد أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوّة حق، ثم أخبر بكفاية شهادته على صحّة خبره؛ بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله.

فآياته شاهدة بصدق، وهو شاهد بصدق رسوله بآياته، فهو الشاهد والمشهود له، وهو الدليل والمدلول عليه، فهو الدليل بنفسه على نفسه؛ كما قال بعض العارفين: كيف أطلب الدليل على من هو دليل لي على كل شيء؟ فأني دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه.

ولهذا قال الرُّسل لقومهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠] فهو أعرف من كل معروف، وأبين من كل دليل؛ فالأشياء عُرِفَتْ به في الحقيقة، وإن كان عُرِفَ بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه.

فائدة: [دعاء الهم والحزن]

في المسند، وصحيح أبي حاتم^(١) من حديث عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصاب عبدا هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي وغمّي؛ إلّا أذهب الله همّه وغمّه، وأبدله مكانه فرحاً» قالوا: يا رسول الله، أفلا نتعلّمهن؟ قال: «بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلّمهن».

فتضمّن هذا الحديث العظيم أموراً من المعرفة والتوحيد والعبودية.

(١) أحمد (٢/ ٨٦٤)، وابن حبان (٩٧٢).

❖ منها: أَنَّ الدَّاعِي به صَدَّرَ سؤَالَه بِقَوْلِهِ: إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أُمِّتِكَ، وهذا يتناول مَنْ فوقَه مِنْ آبَائِهِ وَأُمَمَاتِهِ إِلَى أَبُوِيهِ آدَمَ وَحَوَاءَ، وفي ذلك تَمَلُّقٌ له واستخذاءٌ^(١) بين يديه، واعترافٌ بَأَنَّهُ مملوكُهُ وآبَاؤُهُ مَمَالِيكُهُ، وَأَنَّ العبدَ ليس له غيرُ بابِ سَيِّدِهِ وفضلِهِ وإحسانِهِ، وَأَنَّ سَيِّدَهُ إِنَّ أَهْمَلَهُ وتخلَّى عنه هلكَ، ولم يُؤَوِّهِ أحدٌ ولم يعطفْ عليه، بَلْ يَضِيعُ أعْظَمَ ضِيعَةٍ.

فتحتَ هذا الاعترافَ: إِنِّي لا غنى بي عنكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وليس لي مَنْ أعوذُ به وألوذُ به غيرُ سَيِّدِي الذي أنا عبده.

وفي ضَمَنِ ذلك: الاعترافُ بِأَنَّهُ مَرْبُوبٌ مَدْبَرٌ مَأْمُورٌ مِنْهِي، إِنَّمَا يَتَصَرَّفُ بِحُكْمِ الْعِبُودِيَّةِ، لا بِحُكْمِ الْإِخْتِيَارِ لِنَفْسِهِ، فليس هذا شأنُ الْعَبْدِ، بل شأنُ الْمَلُوكِ وَالْأَحْرَارِ، وَأَمَّا الْعَبِيدُ: فتَصَرَّفُهم عَلَى مَحْضِ الْعِبُودِيَّةِ، فهؤلاءِ عبيدُ الطاعةِ المضافونَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقَوْلِهِ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وَمَنْ عَدَاهُمْ عبيدُ الْقَهْرِ وَالرَّبُوبِيَّةِ، فإِضَافَتُهُمْ إِلَيْهِ كإِضَافَةِ سَائِرِ الْيُتُوبِ إِلَى مُلْكِهِ، وإِضَافَةُ أَوْلَئِكَ كإِضَافَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ إِلَيْهِ، وإِضَافَةُ نَاقَتِهِ إِلَيْهِ، ودارِهِ - التي هي الْجَنَّةُ - إِلَيْهِ، وإِضَافَةُ عِبُودِيَّةِ رَسُولِهِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

وفي التَحَقُّقِ بِمعْنَى قَوْلِهِ: إِنِّي عَبْدُكَ التزامُ عِبُودِيَّتِهِ مِنَ الذُّلِّ والخُضُوعِ وَالْإِنَابَةِ، وامْتِثَالُ أَمْرِ سَيِّدِهِ، واجْتِنَابُ نَهْيِهِ، ودَوَامُ الْإِفْتِقَارِ إِلَيْهِ وَاللَّجَأِ إِلَيْهِ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَعِيَاذُ الْعَبْدِ بِهِ وَلِيَاذِهِ بِهِ، وَأَلَّا يَتَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِغَيْرِهِ؛ مُحَبَّةٌ وَخَوْفًا وَرَجَاءً.

(١) الاستخذاءُ: التَّذَلُّلُ والانكسارُ.

*** ثم قال:** «ناصيتي بيدك»: ومتى شهد العبد أن ناصيته، ونواصي العباد كلها بيد الله وحده يُصِرُّهُمْ كيف يشاء، لم يخفُّهم بعد ذلك، ولم يرجِّهم، ولم يُنزِلْهم منزلة المالكين؛ بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين، المتصرف فيهم سواهم، والمدبر لهم غيرهم.

فَمَنْ شهد نفسه بهذا المشهد صار فقره وضرورته إلى ربه وصفا لازما له، ومتى شهد الناس كذلك لم يفتقر إليهم، ولم يُعلّق أمله ورجاء بهم، فاستقام توحيدُه وتوكلُه وعبوديتُه.

ولهذا قال هوذ لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ربي وَرَبِّكُمْ مِمَّنْ دَايَبَهُ إِلَّا هُوَ اخِذْ بُنَاصِينَهَا إِن ربي عَلَى صَرِطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

*** وقوله:** «ماضي في حُكْمك، عدل في قضاؤك»: فرّق بين الحكم والقضاء، وجعل المضاء للحكم، والعدل للقضاء، فإن حُكْمه سبحانه يتناول حكمه الديني الشرعي، وحُكْمه الكوني القدري، والنوعان نافذان في العبد ماضيان فيه، وهو مقهورٌ تحت الحُكْمين قد مَضِيََا فيه ونَفَذَا فيه، شاء أم أبى، لكن الحكم الكوني لا يمكنه مخالفته، وأمّا الديني الشرعي فقد يخالفه.

*** وقوله:** «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسم...» إلى آخره، توسّل إليه بأسمائه كلها؛ ما علِمَ العبد منها وما لم يعلم، وهذه أحبُّ الوسائل إليه، فإنّها وسيلة بصفاته وأفعاله التي هي مدلول أسمائه.

*** وقوله:** «أَنْ تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري» الربيع: المطر الذي يحيي الأرض، شبه القرآن به لحياة القلوب به، وكذلك شبهه الله بالمطر، وجمع بين الماء الذي تحصل به الحياة، والنور الذي تحصل به الإضاءة والإشراق، كما جمع بينهما سبحانه في قوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ

زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ ﴿الرعد: ١٧﴾.

فتضمّن الدعاء أن يحيي قلبه بربيع القرآن، وأن يُنور به صدره، فتجتمع له الحياة والنور، قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

* ولما كان الصدر أوسع من القلب؛ كان النور الحاصل له يسري منه إلى القلب؛ لأنه قد حصل لما هو أوسع منه، ولما كانت حياة البدن والجوارح كلها بحياة القلب تسري الحياة منه إلى الصدر، ثم إلى الجوارح؛ سأل الحياة له بالربيع الذي هو مادتها.

* ولما كان الحزن والهَمُّ والغمُّ يضادُّ حياة القلب واستنارتَه؛ سأل أن يكون ذهابها بالقرآن؛ فإنها أحرى ألا تعود، وأمّا إذا ذهبت بغير القرآن؛ من صحّة، أو دنيا، أو جاه، أو زوجة، أو ولد؛ فإنها تعود بذهاب ذلك.

والمكروه الوارد على القلب: إن كان من أمرٍ ماضٍ؛ أحدث الحزن، وإن كان من مستقبل؛ أحدث الهَمُّ، وإن كان من أمرٍ حاضر؛ أحدث الغم، والله أعلم.

فائدة: [تأملات في خطاب القرآن]

تأمل خطاب القرآن تجد ملكاً له الملك كله، وله الحمد كله، أزمته^(١) الأمور كلها بيديه، ومصدرها منه، ومردّها إليه، لا تخفى عليه خافية في أقطار مملكته، عالمًا بما في نفوس عبّاده، مُطَّلِعًا على أسرارهم وعلاّنيّتهم، مُنْفَرِدًا بتدبير المملكة، يسمع ويرى، ويُعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويُقدّر ويقضي ويدبّر.

(١) أزمته: واحدها زمام، وهو ما تُقاد به الناقة.

الأمور نازلةً من عنده دقيقتها وجليلها، وصاعدةً إليه، لا تتحرك ذرةً إلا بإذنه، ولا تسقط ورقةً إلا بعلمه.

ويُثني على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسيئ أعمالهم وقبيح صفاتهم، ويضرب الأمثال، وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويقول الحق ويهدي السبيل، ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويحذر من دار البوار، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها، ويذكر عباده فقرهم إليه، وشدة حاجتهم إليه من كل وجه، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكر غناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه بنفسه، وأنه لا ينال أحد ذرةً من الخير فما فوقها إلا بفضلِهِ ورحمته، ولا ذرةً من الشرّ فما فوقها إلا بعدله وحكمته.

فإذا شهدت القلوب من القرآن ملكًا عظيمًا، رحيماً جواداً، جميلاً، هذا شأنه = فكيف لا تحبه، وتنافس في القرب منه، وتنفق أنفاسها في التودد إليه، ويكون أحبّ إليها من كل ما سواه، ورضاه أثر عندها من رضا كل ما سواه؟! وكيف لا تلهج بذكره، ويصير حبه والشوق إليه والأنس به هو غذاءها وقوتها ودواءها، بحيث إن فقدت ذلك؛ فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها؟!

فائدة: [نظرات في سورة التكاثر]

قوله تعالى: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ ١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ٧ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ٨ .

أُخْلِصَتْ هذه السورةُ للوعيدِ والتهديدِ، وكفى بها موعظةً لمن عَقَلَهَا،
فَقَوْلُهُ تعالى: ﴿أَلْهَنَكُمْ﴾ أي: شَغَلَكُمْ على وجهٍ لا تُعْذِرُونَ فيه، فَإِنَّ الإلهاءَ عن
الشيءِ هو الاشتغالُ عنه، فَإِنْ كَانَ بقصدٍ فهو محلُّ التكليفِ، وَإِنْ كَانَ بغير قصد -
كقوله ﷺ في الخميصة^(١): «إِنَّهَا أَلْهَنِي أَنْفًا عَنْ صَلَاتِي»^(٢) - كَانَ صاحبُه معذورًا،
وهو نوعٌ من النسيان.

وفي الحديث: «فَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الصَّبِيِّ»^(٣) أي ذَهَلَ عنه، ويقال: لَهَا
بالشيءِ، أي: اشتغلَ به، وَلَهَا عنه: إِذَا انصرفَ عنه.

واللهوُ: للقلب، واللعب: للجوارح، ولهذا يُجْمَعُ بينهما.

ولهذا كان قوله: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ أبلغَ في الذمِّ من: شَغَلَكُمْ، فَإِنَّ العاملَ قد
يستعملُ جوارحَه بما يعملُ وقلْبُه غيرَ لاهٍ به، فاللهو هو: ذهولٌ وإعراضٌ،
والتكاثر: تفاعلٌ من الكثرة، أي: مكاثرةٌ بعضكم لبعضٍ.

فالتكاثرُ في كلِّ شيءٍ؛ من مالٍ، أو جاهٍ، أو رياسةٍ، أو نسوةٍ، أو حديثٍ، أو
علمٍ - ولا سيما إِذَا لم يُحْتَجْ إليه - والتكاثرُ في الكتبِ والتصانيفِ، وكثرةُ المسائلِ
وتفريعها وتوليدها.

والتكاثرُ: أَنْ يطلبَ الرَّجُلُ أَنْ يكونَ أَكْثَرَ من غيره، وهذا مذمومٌ إلا فيما
يُقَرَّبُ إلى الله، فالتكاثرُ فيه منافسةٌ في الخيراتِ ومسابقةٌ إليها، وفي (صحيح
مسلم)^(٤) من حديث عبد الله بن الشَّخِيرِ أَنَّهُ انتَهَى إلى النَّبِيِّ ﷺ وهو يقرأ:

(١) الخميصة: هي ثوب خَزْ أو صوف معلم.

(٢) البخاري (٣٧٣)، ومسلم (٥٥٦).

(٣) البخاري (٦١٩١).

(٤) مسلم (٢٩٥٨).

﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ قال: «يقول ابنُ آدمَ: مالي مالي، وهل لك من مالِكٍ إلا ما تصدَّقتَ فأَمْضَيْتَ، أو أكلتَ فأَفْنَيْتَ، أو لَبَسْتَ فأَبْلَيْتَ؟!».

تنبيه: [عبر ومواعظ]

- * مَنْ لَمْ يَتَنَفَّعْ بِعَيْنِهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِأُذُنِهِ.
- * لِلْعَبْدِ سِتْرٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ وَسِتْرٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ؛ فَمَنْ هَتَكَ السِّتْرَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ؛ هَتَكَ اللَّهُ السِّتْرَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ.
- * لِلْعَبْدِ رَبٌّ هُوَ مَلَاقِيهِ، وَبَيْتٌ هُوَ سَاكُنُهُ، فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَسْتَرْضِيَ رَبَّهُ قَبْلَ لِقَائِهِ، وَيَعْمُرَ بَيْتَهُ قَبْلَ انْتِقَالِهِ إِلَيْهِ.
- * إِضَاعَةُ الْوَقْتِ أَشَدُّ مِنَ الْمَوْتِ؛ لِأَنَّ إِضَاعَةَ الْوَقْتِ تَقْطَعُكَ عَنِ اللَّهِ وَالْدَّارِ الْآخِرَةِ، وَالْمَوْتُ يَقْطَعُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا.
- * الدُّنْيَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا لَا تُسَاوِي غَمَّ سَاعَةٍ؛ فَكَيْفَ بَغَمِّ الْعُمُرِ؟!
- * مَحْبُوبُ الْيَوْمِ يَعْقُبُ الْمَكْرُوهَ غَدًا، وَمَكْرُوهُ الْيَوْمِ يَعْقُبُ الْمَحْبُوبَ غَدًا.
- * أَعْظَمُ الرِّيحِ فِي الدُّنْيَا أَنْ تَشْتَغَلَ نَفْسُكَ كُلَّ وَقْتٍ بِمَا هُوَ أَوْلَى بِهَا، وَأَنْفَعُ لَهَا فِي مَعَادِهَا.
- * كَيْفَ يَكُونُ عَاقِلًا مَنْ بَاعَ الْجَنَّةَ بِمَا فِيهَا بِشَهْوَةٍ سَاعَةٍ؟!
- * يَخْرُجُ الْعَارِفُ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَقْضِ وَطَرَهُ مِنْ شَيْئَيْنِ: بِكَأُوهٍ عَلَى نَفْسِهِ، وَثَنًاؤُهُ عَلَى رَبِّهِ.
- * الْمَخْلُوقُ إِذَا خِفَتْهُ اسْتَوْحِشَتْ مِنْهُ وَهَرَبَتْ مِنْهُ، وَالرَّبُّ تَعَالَى إِذَا خِفَتْهُ أَنْسَتْ بِهِ وَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ.

* لو نَفَعَ العلمُ بلا عملٍ؛ لما ذَمَّ اللهُ سبحانه أَحْبَارَ أَهْلِ الْكِتَابِ، ولو نَفَعَ العملُ بلا إِخْلَاصٍ؛ لما ذَمَّ الْمُنَافِقِينَ.

* دَافِعُ الْخَطَرَةِ؛ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ صَارَتْ فِكْرَةً، فِدَافِعُ الْفِكْرَةِ؛ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ صَارَتْ شَهْوَةً، فَحَارِبُهَا؛ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ صَارَتْ عَزِيمَةً وَهَمَّةً؛ فَإِنْ لَمْ تُدَافِعْهَا صَارَتْ فِعْلًا؛ فَإِنْ لَمْ تَتَدَارَكْهُ بِضَدِّهِ صَارَ عَادَةً؛ فَيَصْعُبُ عَلَيْكَ الْإِنْتِقَالُ عَنْهَا.

* التَّقْوَى ثَلَاثُ مَرَاتِبَ:

• إِحْدَاهَا: حِمِيَّةُ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ عَنِ الْآثَامِ وَالْمَحْرَمَاتِ.

• الثَّانِيَةِ: حِمِيَّتُهَا عَنِ الْمَكْرُوهَاتِ.

• الثَّالِثَةِ: الْحِمِيَّةُ عَنِ الْفُضُولِ وَمَا لَا يَعْني.

فَالْأُولَى تُعْطِي الْعَبْدَ حَيَاتِهِ، وَالثَّانِيَةُ تَفِيدُهُ صِحَّتَهُ وَقَوَّتَهُ، وَالثَّالِثَةُ تُكْسِبُهُ سُرُورَهُ وَفَرَحَهُ وَبَهْجَتَهُ.

عُمُوضُ الْحَقِّ حِينَ تَذُبُّ عَنْهُ ** يُقَلِّلُ نَاصِرَ الْخَصْمِ الْمُحَقِّ
تَضَلَّ عَنِ الدَّقِيقِ فَهُوَ قَوْمٌ ** فَتَقْضِي لِلْمُجِلِّ عَلَى الْمُدِقِّ
بِاللَّهِ أَبْلَغُ مَا أَسْعَى وَأَدْرِكُهُ ** لَا بِي وَلَا بِشَفِيعٍ لِي مِنَ النَّاسِ
إِذَا أَيْسَتْ وَكَادَ الْيَأْسُ يَقْطَعُنِي ** جَاءَ الرَّجَا مُسْرِعًا مِنْ جَانِبِ الْيَاسِ

* لَمَّا طَلَبَ آدَمُ الْخُلُودَ فِي الْجَنَّةِ مِنْ جَانِبِ الشَّجَرَةِ؛ عُوقِبَ بِالْخُرُوجِ مِنْهَا، وَلَمَّا طَلَبَ يُوسُفُ الْخُرُوجَ مِنَ السِّجْنِ مِنْ جِهَةِ صَاحِبِ الرُّؤْيَا؛ لَبِثَ فِيهِ بَضْعَ سَنِينَ.

* إِذَا جَرَى عَلَى الْعَبْدِ مَقْدُورٌ يَكْرَهُهُ؛ فَلَهُ فِيهِ سِتَّةُ مَشَاهِدَ:

• أحدها: مشهد التوحيد، وأنَّ الله هو الذي قَدَّرَهُ وشاءَهُ وخالَقَهُ، وما شاء الله كانَ، وما لم يشأْ لم يكنْ.

• الثاني: مشهد العدل، وأنه ماضٍ فيه حُكْمُهُ، عدلٌ فيه قضاؤُهُ.

• الثالث: مشهد الرَّحْمَةِ، وأنَّ رحمته في هذا المقدورِ غالبَةٌ لغضبه وانتقامه، ورحمتهُ حشوهُ.

• الرابع: مشهد الحِكْمَةِ، وأنَّ حكمته سبحانه اقتضتْ ذلك، لم يُقدِّرْهُ سُدًى ولا قضاءه [عبثًا].

• الخامس: مشهد الحَمْدِ، وأنَّ له سبحانه الحمدَ التامَّ على ذلك من جميع وجوهه.

• السادس: مشهد العبوديَّة، وأنه عبدٌ محضٌ من كلِّ وجهٍ، تجري عليه أحكامُ سيِّده وأقضيته؛ بحكم كونه ملكه وعبدَه، فيصِرُّفه تحتَ أحكامِ القُدريَّة، كما يصِرُّفه تحتَ أحكامِ الدينيَّة؛ فهو محلٌّ لجريانِ هذه الأحكام عليه.

* قلةُ التوفيق، وفسادُ الرَّأي، وخفاءُ الحقِّ، وفسادُ القلبِ، وخمولُ الذِّكرِ، وإضاعةُ الوقتِ، ونفَرَةُ الخلقِ، والوَخْشَةُ بينَ العبدِ وبينَ ربِّه، ومنعُ إجابةِ الدُّعاءِ، وقَسْوَةُ القلبِ، ومحقُّ البركةِ في الرِّزْقِ والعُمُرِ، وجُرْمانُ العِلْمِ، ولباسُ الذُّلِّ، وإدالةُ العدوِّ، وضيقُ الصِّدْرِ، والابتلاءُ بقرناءِ السَّوءِ الذين يفسدونَ القلبَ ويُضَيِّعونَ الوقتَ، وطولُ الهَمِّ والغَمِّ، وضنكُ المعيشةِ، وكَسْفُ البالِ = تتولَّدُ من المعصيةِ، والغفلةِ عن ذكرِ الله، كما يتولَّدُ الزَّرْعُ عن الماءِ، والإحراقُ عن النَّارِ، وأضدادُ هذه تتولَّدُ عن الطاعة.

فصل: [في إقرار العبد بالإساءة والتقصير]

* طوبى لمن أنصفَ ربَّه؛ فأقرَّ له بالجهلِ في عِلْمِهِ، والآفاتِ في عَمَلِهِ،

والعيوب في نفسه، والتفريط في حقه، والظلم في معاملته:

- فَإِنْ أَخَذَهُ بِذُنُوبِهِ رَأَىٰ عَدْلَهُ، وَإِنْ لَمْ يَأْخُذْهَا بِهَا رَأَىٰ فَضْلَهُ.
- وَإِنْ عَمِلَ حَسَنَةً رَّآهَا مِنْ مَّنِّهِ وَصَدَقَتْهُ عَلَيْهِ؛ فَإِنْ قَبِلَهَا فَمِنَّهُ وَصَدَقَتْهُ ثَانِيَةً، وَإِنْ رَدَّهَا فَلَكُونِ مِثْلِهَا لَا يَصْلُحُ أَنْ يُوَاجَهَ بِهِ.
- وَإِنْ عَمِلَ سَيِّئَةً رَّآهَا مِنْ تَخْلِيٍّ عَنْهُ، وَخِذْلَانِهِ لَهُ، وَإِمْسَاكِ عِصْمَتِهِ عَنْهُ، وَذَلِكَ مِنْ عَدْلِهِ فِيهِ، فَيَرَىٰ فِي ذَلِكَ فَقْرَهُ إِلَىٰ رَبِّهِ، وَظُلْمَهُ فِي نَفْسِهِ؛ فَإِنْ غَفَرَهَا لَهُ؛ فَبِمَحْضِ إِحْسَانِهِ وَجُودِهِ وَكَرَمِهِ.

ونكتة المسألة وسرُّها: أَنَّهُ لَا يَرَىٰ رَبَّهُ إِلَّا مُحْسِنًا، وَلَا يَرَىٰ نَفْسَهُ إِلَّا مُسِيئًا أَوْ مُفَرِّطًا أَوْ مُقَصِّرًا، فَيَرَىٰ كُلَّ مَا يَسُرُّهُ مِنْ فَضْلِ رَبِّهِ عَلَيْهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِ، وَكُلَّ مَا يَسُوؤُهُ مِنْ ذُنُوبِهِ وَعَدْلِ اللَّهِ فِيهِ.

* المحبُّون إذا خربت منازل أحبَّابهم؛ قالوا: سَقِيًّا لِسُكَّانِهَا. وكذلك المُحِبُّ؛ إذا أَتَتْ عَلَيْهِ الْأَعْوَامُ تَحْتَ التُّرَابِ؛ ذَكَرَ حِينَئِذٍ حُسْنَ طَاعَتِهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَتَوَدُّدِهِ إِلَيْهِ [و] تَجَدَّدَ رَحْمَتِهِ وَسَقِيَاهُ لِمَنْ كَانَ سَاكِنًا فِي تِلْكَ الْأَجْسَامِ الْبَالِيَةِ.

فائدة: [أنواع الغيرة]

الغيرةُ غيرتان: غيرةٌ على الشيء، وغيرةٌ من الشيء:

- * فالغيرةُ على المحبوب: [حرصُك عليه].
 - * والغيرةُ من المكروه: أَنْ يُزَاحِمَكَ عَلَيْهِ.
- فالغيرة على المحبوب لا تتم إلا بالغيرة من المُزَاحِم، وهذه تُحمدُ حيثُ يكونُ المحبوبُ تَقَبُّحُ المشاركة في حبه؛ كالمخلوق.
- وأما من تحسَّن المشاركة في حبه؛ كالرسولِ والعالمِ، بل الحبيبِ القريبِ

سبحانه؛ فلا يُتَصَوَّرُ غَيْرُهُ المِزَاحِمَةُ عليه، بل هو حَسَدٌ! والغيرةُ المحمودَةُ في حقِّه
 أَنْ يَغَارَ المحبُّ على محبَّتِه له؛ أَنْ يَصْرِفَهَا إلى غيره، أو يَغَارَ عليها أَنْ يَطَّلَعَ عليها
 الغَيْرُ فيفْسِدَهَا عليه، أو يَغَارَ على أعمالِه؛ أَنْ يَكُونَ فيها شيءٌ لغيرِ محبوبِه، أو يَغَارَ
 عليها أَنْ يشوبَهَا ما يكرهُ محبوبُه من رياءٍ، أو إعجابٍ، أو محبَّةٍ؛ لإشرافِ غيره
 عليها، أو غيبتِه عن شُهودِ مِنَّتِه عليه فيها. وبالجملة؛ فغيرتُه تقتضي أَنْ تكونَ
 أحوالُه وأعمالُه وأفعاله كُلُّها لله، وكذلك يَغَارُ على أوقاته أَنْ يذهبَ منها وقتٌ في
 غيرِ رِضَى محبوبِه.

فهذه الغيرةُ من جهةِ العبدِ، وهي غَيْرَةٌ من المِزَاحِمِ له، المُعَوِّقِ القاطعِ له عن
 مرضاةِ محبوبِه.

وأما غَيْرَةُ محبوبِه عليه؛ فهي كراهيةُ أَنْ يَنْصَرِفَ قلبُه عن محبَّتِه إلى محبَّةٍ
 غيره؛ بحيث يشاركُه في حُبِّه.

ولهذا كانت غَيْرَةُ الله أَنْ يَأْتِيَ العبدُ ما حُرِّمَ عليه، ولأجل غَيْرَتِه سبحانه حُرِّمَ
 الفواحشُ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ؛ لِأَنَّ الخلقَ عبيدُه وإماؤُه؛ فهو يَغَارُ على إِمَائِه كما
 يَغَارُ السَّيِّدُ على جوارِيه، والله المثلُ الأعلى، وَيَغَارُ على عبيدِه أَنْ تكونَ محبَّتُهم
 لغيرِه؛ بحيث تحمِلُهم تلكَ المحبةُ على عِشْقِ الصُّورِ ونَيْلِ الفاحشةِ منها.

فصل: [حقيقة الدنيا]

الدُّنْيَا كامرأةٍ بَغِيٍّ لَا تَثْبُتُ مع زوجٍ، إِنَّمَا تَخْطُبُ الأزْوَاجَ لِيُسْتَحْسَنُوا عليها؛
 فلا تَرْضُ بالدِّثَاثَةِ.

مَيَّزْتُ بَيْنَ جَمَالِهَا وَفِعَالِهَا ** فَإِذَا المَلاحَةُ بالقَباحَةِ لَا تَفِي
 حَلَفْتُ لَنَا أَلَّا تَخُونَ عَهْدَنَا ** فَكَأَنَّهُا حَلَفَتْ لَنَا أَلَّا تَفِي

* السَّيْرُ فِي طَلِبِهَا سَيْرٌ فِي أَرْضٍ مَسْبُوعَةٍ^(١)، والسباحة فيها سباحة في غدير التمساح، المفروح به منها هو عين المحزون عليه، آلامها متولدة من لذاتها، وأحزانها من أفراحها.

* لَمَّا عَرَفَ الْمُؤَفَّقُونَ قَدْرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَقَلَّةَ الْمَقَامِ فِيهَا أَمَاتُوا فِيهَا الْهَوَى طَلَبًا لِحَيَاةِ الْآبِدِ، لَمَّا اسْتَيْقَظُوا مِنْ نَوْمِ الْغَفْلَةِ اسْتَرْجَعُوا بِالْجِدِّ مَا انْتَهَبَهُ الْعَدُوُّ مِنْهُمْ فِي زَمَنِ الْبَطَالَةِ، فَلَمَّا طَالَتْ عَلَيْهِمُ الطَّرِيقُ تَلَمَّحُوا الْمَقْصِدَ، فَقَرَّبَ عَلَيْهِمُ الْبَعِيدُ، وَكَلَّمَا أَمَرَتْ لَهُمُ الْحَيَاةُ حَلًا لَهُمْ تَذَكَّرُوا: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وَرَكِبَ سَرَوْا وَاللَّيْلُ مُلْقٍ رَوَاقَهُ ** عَلَى كُلِّ مُغَبَّرٍ الْمَطَالِعِ قَاتِمٍ
حَدَّوْا عَزَمَاتٍ ضَاعَتْ الْأَرْضُ بَيْنَهَا ** فَصَارَ سُرَاهِمُ فِي ظُهُورِ الْعِزَائِمِ
تُرِيهِمْ نَجُومُ اللَّيْلِ مَا يَتَنَعَوْنَ ** عَلَى عَاتِقِ الشَّعْرِيِّ وَهَامِ النِّعَائِمِ
إِذَا اطَّرَدَتْ فِي مَعْرِكِ الْجَدِّ قَصَفُوا ** رِمَاحَ الْعَطَايَا فِي صُدُورِ الْمَكَارِمِ

فصل: [أعجب الأشياء]

مِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ: أَنْ تَعْرِفَهُ ثُمَّ لَا تَحِبَّهُ، وَأَنْ تَسْمَعَ دَاعِيَهُ ثُمَّ تَتَأَخَّرَ عَنِ الْإِجَابَةِ، وَأَنْ تَعْرِفَ قَدْرَ الرَّبِّحِ فِي مُعَامَلَتِهِ ثُمَّ تُعَامِلْ غَيْرَهُ، وَأَنْ تَعْرِفَ قَدْرَ غَضَبِهِ ثُمَّ تَتَعَرَّضَ لَهُ، وَأَنْ تَذُوقَ أَلَمَ الْوَحْشَةِ فِي مُعَاصِيَتِهِ، ثُمَّ لَا تَطْلُبَ الْأُنْسَ بِطَاعَتِهِ، وَأَنْ تَذُوقَ عَصْرَةَ الْقَلْبِ عِنْدَ الْخَوْضِ فِي غَيْرِ حَدِيثِهِ وَالْحَدِيثِ عَنْهُ، ثُمَّ لَا تَشْتَاقِ إِلَى انْشِرَاحِ الصَّدْرِ بِذِكْرِهِ وَمَنَاجَاتِهِ، وَأَنْ تَذُوقَ الْعَذَابَ عِنْدَ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِغَيْرِهِ، وَلَا تَهْرَبَ مِنْهُ إِلَى نَعِيمِ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ.

(١) مَسْبُوعَةٌ: كَثِيرَةُ السَّيَاحِ.

وأعجب من هذا: علمك أنك لا بد لك منه، وأنت أحوج شيء إليه، وأنت عنه معرض، وفيما يُعِدُّكَ عنه راغبٌ.

فائدة: [أسباب الوقوع في الحرام]

ما أخذ العبد ما حُرِّمَ عليه إلا من جهتين:

- إحداهما: سوء ظنه بربه، وأنه لو أطاعه وآثره لم يُعْطِه خيراً منه حلالاً.
 - والثانية: أن يكون عالماً بذلك، وأن مَنْ تَرَكَ لله شيئاً أعاضه خيراً منه، ولكن تغلب شهوته صبره وهو أه عقله.
- فالأوّل من ضعف علمه، والثاني من ضعف عقله وبصيرته.

فصل: [ظهر الفساد في البر والبحر]

كيف يَسْلَمَ مَنْ له زوجة لا ترحمه، وولد لا يعذره، وجار لا يأمنه، وصاحب لا ينصحه، وشريك لا يُنصفه، وعدو لا ينأ عن معاداته، ونفس أمارة بالسوء، ودنيا مُتَزَيِّنة، وهوى مُرَدٍّ، وشهوة غالبة له، وغضب قاهر، وشيطان مُزَيِّن، وضعف مُسْتَوِلٍ عليه، فإن تولاه الله وجذبه إليه انقهرت له هذه كلها، وإن تخلّى عنه ووكله إلى نفسه اجتمعت عليه فكانت الهلكة.

لَمَّا أَعْرَضَ النَّاسُ عَنْ تَحْكِيمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْمَحَاكِمَةِ إِلَيْهِمَا وَاعْتَقَدُوا عَدَمَ الْاِكْتِفَاءِ بِهِمَا وَعَدَلُوا إِلَى الْأَرَاءِ وَالْقِيَاسِ وَالِاسْتِحْسَانِ وَأَقْوَالِ الشُّيُخِ، عَرَضَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ فِسَادٌ فِي فِطَرِهِمْ وَظُلْمَةٌ فِي قُلُوبِهِمْ، وَكَدَرٌ فِي أَفْهَامِهِمْ، وَمَحَقٌّ فِي عَقُولِهِمْ.

وَعَمَّتْهُمْ هَذِهِ الْأُمُورُ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِمْ، حَتَّى رُبِّيَ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَهَرِمَ عَلَيْهَا الْكَبِيرُ، فَلَمْ يَرَوْهَا مِنْكَرًا، فَجَاءَتْهُمْ دَوْلَةٌ أُخْرَى قَامَتْ فِيهَا الْبِدْعُ مَقَامَ السُّنَنِ،

والنفس مقام العقل، والهوى مقام الرُّشد، والضلال مقام الهدى، والمنكر مقام المعروف، والجهل مقام العلم، والرياء مقام الإخلاص، والباطل مقام الحق، والكذب مقام الصدق، والمداهنة مقام النصيحة، والظلم مقام العدل، فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور، وأهلها هم المشار إليهم، وكانت قبل ذلك لأضدادها، وكان أهلها هم المشار إليهم.

فإذا رأيت دولة هذه الأمور قد أقبلت، وراياتها قد نُصبت، وجيوشها قد رُكبت، فبطن الأرض - والله - خير من ظهرها، وقُلُّ^(١) الجبال خير من السهول، ومخالطة الوحش أسلم من مخالطة الناس.

اقشعرت الأرض، وأظلمت السماء، وظهر الفساد في البر والبحر من ظلم الفجرة، وذهبت البركات، وقلَّت الخيرات، وهزَّكت الوحوش، وتكدَّرت الحياة من فسق الظلمة، وبكى ضوء النهار وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة والأفعال الفظيعة، وشكا الكرام الكاتبون والمعقبات إلى ربهم من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبايح.

وهذا - والله - مُنذَرٌ بسيل عذابٍ قد انعقدَ غَمَامُهُ، ومُؤَذِّنٌ بليلٍ بلاءٍ قد ادلهم ظلامه، فاعزُّوا عن طريق هذا السَّيل بتوبة نصوح، ما دامت التوبة ممكنةً وبابها مفتوحٌ، وكأنَّكم بالباب وقد أغلق وبالرَّهن وقد غلَّق، وبالجناح وقد علَّق: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

اشتر نفسك اليوم؛ فإنَّ السوق قائمةٌ، والثمن موجودٌ، والبضائع رخيصةٌ، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يومٌ لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير، ﴿ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ﴾، ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾.

(١) قلل الجبال: أعالي الجبال.

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرَحُلْ بِزَادٍ مِنَ التَّقَى* * وَأَبْصَرْتَ يَوْمَ الْحَشْرِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أَلَّا تَكُونَ كَمِثْلِهِ* * وَأَنَّكَ لَمْ تُرْصِدْ كَمَا كَانَ أَرْصَدَا
الْعَمَلُ بِغَيْرِ إِخْلَاصٍ وَلَا اقْتِدَاءٍ كَالْمَسَافِرِ يَمَلَأُ جِرَابَهُ رَمْلًا يُثْقِلُهُ وَلَا يَنْفَعُهُ.

إِذَا حَمَلْتَ عَلَى الْقَلْبِ هُمُومَ الدُّنْيَا وَأَثْقَالَهَا، وَتَهَاوَنْتَ بِأَوْرَادِهِ الَّتِي هِيَ قُوَّتُهُ
وَحَيَاتُهُ، كُنْتَ كَالْمَسَافِرِ الَّذِي يُحْمَلُ دَابَّتَهُ فَوْقَ طَاقَتِهَا وَلَا يُوفِّيها عَافِيَهَا، فَمَا أَسْرَعَ
مَا تَقَفُ بِهِ !.

وَمُشَّتَتِ الْعَرَمَاتِ يُنْفِقُ عَمْرَهُ* * حَيْرَانَ لَا ظَفَرٌ وَلَا إِخْفَاقٌ

قاعدة: [من فوائد التوحيد]

التوحيد مَفْزَعُ أَعْدَائِهِ وَأَوْلِيائِهِ:

* فَأَمَّا أَعْدَاؤُهُ: فَيُنَجِّيهِمْ مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا وَشِدَائِهَا ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَوْا

اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

* وَأَمَّا أَوْلِيَاؤُهُ: فَيُنَجِّيهِمْ مِنْ كُرْبَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَشِدَائِهَا، وَلِذَلِكَ فَزَعَ
إِلَيْهِ يُونُسُ فَنَجَّاهُ اللَّهُ مِنْ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَفَزَعَ إِلَيْهِ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، فَنَجَّوْا بِهِ مِمَّا عَذَّبَ
بِهِ الْمُشْرِكُونَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

وَلَمَّا فَزَعَ إِلَيْهِ فِرْعَوْنُ عِنْدَ مَعَايِنَةِ الْهَلَاكِ وَإِدْرَاكِ الْغَرَقِ؛ لَمْ يَنْفَعُهُ؛ لِأَنَّ
الْإِيمَانَ عِنْدَ الْمَعَايِنَةِ لَا يَقْبَلُ.

هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، فَمَا دُفِعَتْ شِدَائِدُ الدُّنْيَا بِمِثْلِ التَّوْحِيدِ، وَلِذَلِكَ كَانَ
دَعَاءُ الْكَرْبِ بِالتَّوْحِيدِ، وَدَعْوَةُ ذِي النُّونِ الَّتِي مَا دَعَا بِهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَّجَ اللَّهُ كَرْبَهُ
بِالتَّوْحِيدِ، فَلَا يُلْقَى فِي الْكَرْبِ الْعِظَامِ إِلَّا الشَّرْكَ، وَلَا يُنْجِي مِنْهَا إِلَّا التَّوْحِيدُ، فَهُوَ
مَفْزَعُ الْخَلِيقَةِ وَمَلْجَأُهَا، وَحِصْنُهَا وَغِيَاثُهَا، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

فائدة: [أعظم اللذات]

اللذة تابعة للمحبة، تقوى بقوتها وتضعف بضعفها، فكلما كانت الرغبة في المحبوب والشوق إليه أقوى كانت اللذة بالوصول إليه أتم، والمحبة والشوق تابع لمعرفة العلم به، فكلما كان العلم به أتم كانت محبته أكمل، فإذا رجع كمال النعيم في الآخرة وكمال اللذة إلى العلم والحب؛ فمن كان بالله وأسمائه وصفاته ودينه أعرف كان له أحب، وكانت لذته بالوصول إليه ومجاورته والنظر إلى وجهه وسماع كلامه أتم.

وكل لذة ونعيم وسرور وبهجة بالإضافة إلى ذلك كقطرة في بحر؛ فكيف يؤثر من له عقل لذة ضعيفة قصيرة مشوبة بالآلام على لذة عظيمة دائمة أبد الآباد؟! وكمال العبد بحسب هاتين القوتين: العلم والحب، وأفضل العلم العلم بالله، وأعلى الحب الحب له، وأكمل اللذة بحسبهما، والله المستعان.

قاعدة: [الحبس المحمود]

طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحسبه عن الالتفات إلى غيره، وحسب لسانه عما لا يفيد، وحسبه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته، وحسب جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحسبها على الواجبات والمندوبات، فلا يفارق الحبس حتى يلقي ربه فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه.

ومتى لم يصبر على هذين الحسين وفر منهما إلى فضاء الشهوات؛ أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا، فكل خارج من الدنيا؛ إما متخلص من الحبس، وإما ذاهب إلى الحبس. وبالله التوفيق.

فائدة جليلة: [في الجمع بين تقوى الله وحسن الخلق]

جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق؛ لأنَّ تقوى الله تُصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يُصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته.

فائدة جليلة: [الطريق إلى الله]

بين العبد وبين الله والجنة قنطرة تُقطع بخطوتين:

* خطوة عن نفسه.

* وخطوة عن الخلق.

فَيَسْقِطُ نَفْسَهُ وَيُلْغِيهَا فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَيُسْقِطُ النَّاسَ وَيُلْغِيهِمْ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، فَلَا يَلْتَفِتُ إِلَّا إِلَى مَنْ دَلَّهُ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى الطَّرِيقِ الْمَوْصِلَةِ إِلَيْهِ.

الطريق إلى الله خالٍ مِنْ أَهْلِ الشُّكِّ وَمِنَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ، وَهُوَ مَعْمُورٌ بِأَهْلِ الْيَقِينِ وَالصَّبْرِ، وَهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ كَالْأَعْلَامِ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

قاعدة: [فضل كلمة الإخلاص عند الموت]

لِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عِنْدَ الْمَوْتِ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فِي تَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ وَإِحْبَاطِهَا؛ لِأَنَّهَا شَهَادَةٌ مِنْ عِبْدٍ مَوْقِنٍ بِهَا عَارِفٍ بِمُضْمُونِهَا، قَدْ مَاتَتْ مِنْهُ الشَّهَوَاتُ وَلَانَتْ نَفْسُهُ الْمَتَمَرِّدَةُ، وَانْقَادَتْ بَعْدَ إِبَائِهَا وَاسْتَعْصَائِهَا، وَأَقْبَلَتْ بَعْدَ إِعْرَاضِهَا، وَذَلَّتْ بَعْدَ عَزِّهَا، وَخَرَجَ مِنْهَا حَرَصُهَا عَلَى الدُّنْيَا وَفُضُولُهَا، وَاسْتَخَذَتْ ^(١) بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهَا وَفَاطَرِهَا وَمَوْلَاهَا الْحَقُّ أَذَلَّ مَا كَانَتْ لَهُ، وَأَزْجَى مَا كَانَتْ لِعَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَتَجَرَّدَتْ مِنْهَا التَّوْحِيدُ بَانْقِطَاعِ أَسْبَابِ الشُّرْكِ وَتَحَقُّقِ بَطْلَانِهِ، فَزَالَتْ مِنْهَا تِلْكَ الْمَنَازِعَاتُ الَّتِي

(١) استخذت: ذَلَّتْ وَخَضَعَتْ.

كانت مشغولةً بها، واجتمع همُّها على مَنْ أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه، فوجه العبد وجهه بكلِّيته إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهمِّه عليه، فاستسلم وحده ظاهراً وباطناً، واستوى سرُّه وعلا نيته.

فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها، وفرَّ إلى الله من الناس، وأنس به دون ما سواه، لكنَّه شهد بها بقلب مشحونٍ بالشهوات وحُبِّ الحياة وأسبابها، ونفسٍ مملوءةٍ بطلبِ الحظوظِ والالتفاتِ إلى غير الله، فلو تجردت كتجرُّدها عند الموت لكان لها نبأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيميِّ، والله المستعان.

[ماذا تملك من أمرك؟]

ماذا يملك من أمره مَنْ ناصيته بيد الله ونفسه بيده، وقلبه بين إصبعين من أصابعه يقلِّبه كيف يشاء، وحياته بيده وموته بيده، وسعادته بيده، وشقاوته بيده، وحرَّكاته وسكناته، وأقواله وأفعاله بإذنه ومشيتته، فلا يتحرَّك إلا بإذنه، ولا يفعل إلا بمشيئته؟!

إنَّ وكلَّه إلى نفسه وكلَّه إلى عجزٍ وتفريطٍ وذنبٍ وخطيئةٍ، وإنَّ وكلَّه إلى غيره وكلَّه إلى مَنْ لا يملك له ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وإنَّ تخلَّى عنه استولى عليه عدوه وجعله أسيراً له.

فهو لا غنى له عنه طرفة عين، بل هو مضطَّرُّ إليه على مدى الأنفاس في كلِّ ذرَّةٍ من ذرَّاته باطناً وظاهراً، فاقتته تامَّةً إليه، ومع ذلك فهو متخلِّفٌ عنه مُعرِضٌ عنه، يتبغَّضُ إليه بمعصيته، مع شدَّةِ الضرورةِ إليه من كلِّ وجهٍ، قد صارَ لذكِّره نسيّاً، واتخذهُ وراءَهُ ظهيراً، هذا وإليه مرجعه وبينَ يديه موقفه!

[عناية الله بالإنسان]

فَرَّغْ خَاطِرَكَ لِلَّهِ بِمَا أُمِرْتَ بِهِ، وَلَا تَشْغَلْهُ بِمَا ضَمِنَ لَكَ؛ فَإِنَّ الرِّزْقَ وَالْأَجَلَ قَرِينَانِ مَضْمُونَانِ، فَمَا دَامَ الْأَجَلُ بَاقِيًا كَانَ الرِّزْقُ آتِيًا، وَإِذَا سَدَّ عَلَيْكَ بِحِكْمَتِهِ طَرِيقًا مِنْ طَرَفِهِ؛ فَتَحْ لَكَ بِرَحْمَتِهِ طَرِيقًا أَنْفَعَ لَكَ مِنْهُ.

فتأمل حال الجنين يأتيه غذاؤه - وهو الدَّم - من طريقٍ واحدةٍ وهي السُّرَّةُ، فلمَّا خَرَجَ مِنْ بَطْنِ الْأُمِّ وانْقَطَعَتْ تِلْكَ الطَّرِيقُ، فَتَحَ لَهُ طَرِيقَيْنِ اثْنَيْنِ، وَأَجْرَى لَهُ فِيهِمَا رِزْقًا أَطِيبَ وَالَّذِي مِنَ الْأَوَّلِ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا، فَإِذَا تَمَّتْ مَدَّةُ الرِّضَاعِ وانْقَطَعَتْ الطَّرِيقَانِ بِالْفِطَامِ؛ فَتَحَ طَرِيقًا أَرْبَعَةً أَكْمَلَ مِنْهَا: طَعَامَانِ وَشَرَابَانِ، فَالطَّعَامَانِ: مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ، وَالشَّرَابَانِ: مِنَ الْمِيَاهِ وَالْأَلْبَانِ وَمَا يُضَافُ إِلَيْهِمَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَلَادِّ، فَإِذَا مَاتَ انْقَطَعَتْ عَنْهُ هَذِهِ الطَّرِيقُ الْأَرْبَعَةُ، لَكِنَّهُ سَبَّحَانَهُ فَتَحَ لَهُ - إِنْ كَانَ سَعِيدًا - طَرَفًا ثَمَانِيَةً، وَهِيَ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ.

فهكذا الرَّبُّ سَبَّحَانَهُ؛ لَا يَمْنَعُ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَيُؤْتِيهِ أَفْضَلَ مِنْهُ وَأَنْفَعَ لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِغَيْرِ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَمْنَعُهُ الْحِظَّ الْأَدْنَى الْخَسِيسَ وَلَا يَرْضَى لَهُ بِهِ؛ لِيُعْطِيَهُ الْحِظَّ الْأَعْلَى الْنَفِيسَ، وَالْعَبْدُ - لَجْهَلِهِ بِمَصَالِحِ نَفْسِهِ وَجْهَلِهِ بِكَرَمِ رَبِّهِ وَحِكْمَتِهِ وَلَطْفِهِ - لَا يَعْرِفُ التَّفَاوُتَ بَيْنَ مَا مُنِعَ مِنْهُ وَبَيْنَ مَا ذُخِرَ^(١) لَهُ.

[فصل: كيف تحقق مصالح الدنيا والآخرة]

جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»^(٢) بَيْنَ مَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَنَعِيمُهَا وَلَذَّتُهَا إِنَّمَا يُنَالُ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَرَاحَةُ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ، وَتَرْكُ الْإِهْتِمَامِ وَالْحَرَصِ الشَّدِيدِ وَالتَّعَبِ وَالْعِنَادِ وَالْكَدِّ وَالشَّقَاءِ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا إِنَّمَا يُنَالُ

(١) ذُخِرَ: شِئْءٌ أَبْقَاهُ.

(٢) ابن ماجه (٢١٤٤).

بالإجمال في الطلب.

فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ فَازَ بِلَذَّةِ الْآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا.

وَمَنْ أَجْمَلَ فِي الطَّلَبِ اسْتَرَاحَ مِنْ نَكْدِ الدُّنْيَا وَهَمومِهَا، فَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

قد نادى الدنيا على نفسها * * لو كان في ذا الخلق مَنْ يَسْمَعُ
كم واثقٍ بالعيشِ أهلكته * * وجامعٍ فرقتُ ما يجمعُ

فائدة: [في الجمع بين المأثم والمغرم]

جمع النبي ﷺ بين المأثم والمغرم^(١)؛ فإنَّ المأثمَ يُوجِبُ خسارةَ الآخرةِ،
والمغرمَ يُوجِبُ خسارةَ الدنيا.

فائدة: [أكمل الناس هداية]

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾
[العنكبوت: ٦٩] علّق سبحانه الهدايةَ بالجهادِ، فأكملُ الناسِ هدايةً أعظمُهم جهاداً،
وأفرّضَ الجهادَ جهادَ النَّفْسِ، وجهادَ الهوى، وجهادَ الشيطانِ، وجهادَ الدُّنْيَا، فَمَنْ
جاهدَ هذهَ الأربعةَ في الله هداهُ الله سُبُلَ رضاهِ الموصلةَ إلى جَنَّتِهِ، وَمَنْ تَرَكَ الجهادَ
فاتهَ من الهدى بحسبِ ما عطلَّ من الجهادِ.

قال الجُنيد: والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهديهم سُبُلَ الإخلاصِ،
ولا يتمكّنُ من جهادِ عدوّهِ في الظاهرِ إلا مَنْ جاهدَ هذهَ الأعداءَ باطنًا، فَمَنْ نُصِرَ
عليها نُصِرَ على عدوّهِ، وَمَنْ نُصِرَتْ عليه نُصِرَ عليه عدوّهُ.

(١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ
وَالْمَغْرَمِ»، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرُ مَا تَسْتَعِذُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْمَغْرَمِ، قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ؛
حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ». البخاري (٨٣٢)، ومسلم (٥٨٩).

فصل : [أعلى الهمم]

أعلى الهمم في باب الإرادة: أن تكون الهمّة متعلّقة بمحبّة الله والوقوف مع مراده الدينيّ الأمريّ.

وأسفلها أن تكون الهمّة واقفة مع مُراد صاحبها من الله، فهو إنّما يعبدُ لمراده منه لا لمراد الله منه، فالأوّل: يريدُ الله ويريدُ مراده، والثاني: يريدُ من الله وهو فارغٌ عن إرادته.

صفة علماء السوء

علماءُ السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلّما قالت أقوالهم للناس: هلمّوا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم؛ فلو كان ما دَعَوْا إليه حقًّا كانوا أوّل المستجيبين له، فهم في الصورة أدلّاء، وفي الحقيقة قطعاً الطُّرق.

فصل : [فتح مكة]

لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ حَضْرِ الْعَدُوِّ دَخَلَ فِي حَضْرِ النَّصْرِ، فَعَبَثَتْ أَيْدِي سَرَايَاهُ بِالنَّصْرِ فِي الْأَطْرَافِ، فَطَارَ ذِكْرُهُ فِي الْآفَاقِ، فَصَارَ الْخَلْقُ مَعَهُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: مُؤْمِنٌ بِهِ، وَمُسَالِمٌ لَهُ، وَخَائِفٌ مِنْهُ.

ألقى بِذَرِ الصَّبْرِ فِي مَزْرَعَةٍ ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ فإذا أغصانُ النَّبَاتِ تَهْتَزُّ بِخُزَامِيٍّ ﴿وَالْحُرْمَتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤]؛ فدخَلَ مكة دُخُولًا مَا دَخَلَهُ أَحَدٌ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ؛ حَوْلَهُ الْمَهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، لَا يَبِينُ مِنْهُمْ إِلَّا الْحَدَقُ، وَالصَّحَابَةُ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ، وَالْمَلَائِكَةُ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ، وَجَبْرِيلُ يَتَرَدَّدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَقَدْ أَبَاحَ لَهُ حَرَمَهُ الَّذِي لَمْ يُحِلَّهُ لِأَحَدٍ سِوَاهُ.

فَلَمَّا قَايَسَ بَيْنَ هَذَا الْيَوْمِ وَبَيْنَ يَوْمٍ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ

أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴿[الأنفال: ٣٠]، فأخرجوه ثاني اثنين؛ دخل وذقنه يمس قربوس سرجه، خضوعاً وذلاً لمن ألبسه ثوب هذا العز، الذي رفعت إليه فيه الخليفة رؤوسها، ومدت إليه الملوك أعناقها.

فدخل مكة مالكا مؤيَّدا منصوراً، وعلا كعب بلال فوق الكعبة بعد أن كان يُجر في الرَّمْضَاءِ على جمر الفتنة، فنشر بزاً طوي عن القوم من يوم قوله: أحد أحد، ورفع صوته بالأذان، فأجابته القبائل من كل ناحية، فأقبلوا يؤثون الصوت، فدخلوا في دين الله أفواجاً، وكانوا قبل ذلك يأتون آحاداً.

فلما جلس الرسول ﷺ على منبر العز -وما نزل عنه قط- مدت الملوك أعناقها بالخضوع إليه؛ فمنهم من سلم إليه مفاتيح البلاد، ومنهم من سألته الموادة والصُّلح، ومنهم من أقر بالجزية والصغار، ومنهم من أخذ في الجمع والتأهب للحرب، ولم يدر [أنه] لم يزد على جمع الغنائم، وسوق الأسارى إليه، فلما تكامل نصره، وبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وجاءه منشور ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ١

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ٢ وَيُنْصِرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ٣ ﴿[الفتح: ١ - ٣]، وبعده توقع ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ١﴾

وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ٢﴾ [النصر: ١ - ٢]؛ جاءه رسول ربه يُخبره بين المقام في الدنيا وبين لقائه، فاختار لقاء ربه شوقاً إليه، فتزينت الجنان ليوم قدوم روجه الكريمة، لا كزينة المدينة يوم قدوم الملك، إذا كان عرش الرحمن قد اهتز لموت بعض أتباعه فريحا واستبشاراً بقدوم روجه؛ فكيف بقدوم روح سيّد الخلائق؟!

فيا منتسباً إلى غير هذا الجنب! ويا واقفاً بغير هذا الباب!

ستعلم يوم الحشر أي سريرة * تكون عليها يوم تبلى السرائر

فصل : [عبر ومواعظ]

• يا مغرورًا بالأمان! لعن إبليس وأهبط من منزل العزِّ بترك سجدة واحدة أمر بها، وأخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها، وحجب القاتل عنها بعد أن رآها عيانًا بملء كف من دم، وأمر بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قدر الأثمة فيما لا يحل، وأمر بإيساع الظهر سياتًا بكلمة قذف أو بقطرة من مسكر، وأبان عضوًا من أعضائك بثلاثة دراهم؛ فلا تأمنه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة من معاصيه؛ ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥]! دخلت امرأة النار في هرة^(١)، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب^(٢)، وإن الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة؛ فإذا كان عند الموت جاز في الوصية، فيختم له بسوء عمله، فيدخل النار^(٣).

• العمر بأخيه، والعمل بخاتمه.

• من أحدث قبل السلام بطل ما مضى من صلاته، ومن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعًا، ومن أساء في آخر عمره لقي ربه بذلك الوجه.

• لو قدمت لقمة وجدتها، ولكن يؤذيك الشره.

• كم جاء الثواب يسعى إليك، فوقف بالباب، فردّه بواب (سوف) و (لعل) و (عسى).

• كيف الفلاح بين إيمان ناقص، وأمل زائد، ومرض لا طيب له، ولا عائد، وهوى مستيقظ، وعقل راقد؛ ساهيًا في عمرته، عمها في سكرته، سابعًا في لجّة

(١) البخاري (٢٣٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٢) البخاري (٦٤٧٨)، ومسلم (٢٩٨٨).

(٣) أبو داود (٢٨٦٧)، والترمذي (٢١١٧)، وابن ماجه (٢٧٠٤).

جهله، مستوحشاً من ربه، مستأنساً بخلقه، ذكّر الناس فأكهته وقوته، وذكّر الله حبسه وموته، لله منه جزء يسير من ظاهره، وقلبه وقيقته لغيره؟! لا كان من لسواك فيه بقية** يجد السبيل بها إليه العذل

فصل : [أول المخلوقات وآخرهم]

كان أول المخلوقات القلم؛ ليكتب المقادير قبل كونها^(١)، وجعل آدم آخر المخلوقات، وفي ذلك حكم:

* إحداها: تمهيد الدار قبل الساكن.

* الثانية: أنه الغاية التي خلق لأجلها ما سواه؛ من السماوات والأرض، والشمس والقمر، والبر والبحر.

* الثالثة: أن أخذ الصنّاع يخيّم عمله بأحسنه وغايته، كما يبدوه بأساسه ومبادئه.

* الرابعة: أن النفوس متطلّعة إلى النهايات والأواخر دائماً، ولهذا قال موسى للسحرة أولاً: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [يونس: ٨٠]، فلما رأى الناس فعلهم تطلّعوا إلى ما يأتي بعده.

* الخامسة: أن الله سبحانه آخر أفضل الكتب والأنبياء والأمم إلى آخر الزمان، وجعل الآخرة خيراً من الأولى، والنهايات أكمل من البدايات؛ فكم بين قول الملك للرسول: اقرأ! فيقول: ما أنا بقارئ، وبين قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]!

* السادسة: أنه سبحانه جمّع ما فرق في العالم في آدم؛ فهو العالم الصغير،

(١) أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٣٣١٩، ٢١٥٥).

وفيه ما في العالم الكبير.

*** السابعة:** أنه خلاصة الوجود وثمرته؛ فناسب أن يكون خلقه بعد الموجودات.

*** الثامنة:** أن هذا من كرامته على خالقه؛ أنه هياً له مصالحه وحوائجه، وآلات معيشته وأسباب حياته؛ فما رفع رأسه إلا وذلك كله حاضر عتيذ.

*** التاسعة:** أنه سبحانه أراد أن يظهر شرفه وفضله على سائر المخلوقات، فقدمها عليه في الخلق، ولهذا قالت الملائكة: لِيَخْلُقَ رَبُّنَا مَا شَاءَ؛ فلن يخلق خلقاً أكرم عليه منّا، فلما خلق آدم، وأمرهم بالسجود له، ظهر فضله وشرفه عليهم بالعلم والمعرفة، فلما وقع في الذنب ظنت الملائكة أن ذلك الفضل قد نُسَخَ، ولم تطلع على عبودية التوبة الكامنة، فلما تاب إلى ربه، وأتى بتلك العبودية؛ علمت الملائكة أن الله في خلقه سرّاً لا يعلمه سواه.

*** العاشرة:** أنه سبحانه لما افتتح خلق هذا العالم بالقلم، كان من أحسن المناسبة أن يختمه بخلق الإنسان؛ فإن القلم آلة العلم، والإنسان هو العالم، ولهذا أظهر سبحانه فضل آدم على الملائكة بالعلم الذي خص به دونهم.

فصل : [في تجلي الله في القرآن لعباده بصفاته]

القرآن كلام الله، وقد تجلّى الله فيه لعباده بصفاته:

- فتارة يتجلّى في جلاب الهيبة، والعظمة، والجلال = فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخضع الأصوات، ويذوب الكبير كما يذوب الملح في الماء.
- وتارة يتجلّى في صفات الجمال، والكمال، وهو كمال الأسماء، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، الدال على كمال الذات = فيستنفذ حبه من قلب العبد قوّة الحبّ كلّها بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله؛ فيصبح فؤاد

عبدِه فارغًا إلا من محبَّتِه، فإذا أرادَ منه الغيرُ أن يعلّقَ تلك المحبةَ به أبى قلبُه وأحشاؤُه ذلك كلَّ الإباء؛ كما قيل:

يُرادُ من القلبِ نسيانُكم * وتأبى الطَّباعُ على النّالِ
فتبقى المحبّةُ له طبعًا لا تكلفًا.

• وإذا تجلّى بصفاتِ الرّحمة، والبرِّ، واللّطفِ، والإحسانِ = انبعثتْ قوّةُ الرّجاءِ من العبدِ، وانبسطَ أملُه، وقويَ طمَعُه، وسارَ إلى ربِّه وحادي الرّجاءِ يحدو رِكابَ سيّره، وكلّما قويَ الرّجاءُ جدّ في العمل؛ كما أن الباذِرَ كلّما قويَ طمَعُه في المَعْل غلّقَ أرْضَه بالبذرِ، وإذا ضعُفَ رجاؤُه قَصَرَ في البذرِ.

• وإذا تجلّى بصفاتِ العدلِ، والانتقامِ، والغضبِ، والسّخطِ، والعقوبةِ = انقمعتِ النفسُ الأمّارةُ، وبطلتْ أو ضُعفتْ قواها من الشّهوةِ، والغضبِ، واللّهوِ، واللّعبِ، والحرصِ على المحرّماتِ، وانقبضتْ أعنّةُ رُعوناتها؛ فأخضرتِ المطيّةَ حظّها من الخوفِ، والخشيّةِ، والحذرِ.

• وإذا تجلّى بصفاتِ السّمعِ، والبصرِ، والعلمِ = انبعثَ من العبدِ قوّةُ الحياءِ؛ فيستحيي ربّه أن يراه على ما يكرهه، أو يسمّعُ منه ما يكرهه، أو يخفي في سريره ما يَمَقّتُه عليه؛ فتبقى حرّكاته وأقوالُه وخواطِرُه موزونةً بميزانِ الشّرعِ، غيرَ مُهمّلةٍ ولا مُرسّلةٍ تحت حكمِ الطّبيعةِ والهوى.

• وإذا تجلّى بصفاتِ الكفّايةِ، والحسبِ، والقيامِ بمصالحِ العبادِ، وسوقِ أرزاقهم إليهم، ودفعِ المصائبِ عنهم، ونصرِه لأوليائه، وحمايته لهم، ومعيّته الخاصّةِ لهم = انبعثتْ من العبدِ قوّةُ التوكّلِ عليه، والتفويضِ إليه، والرّضى به في كلّ ما يُجرّيه على عبدِه ويُقيّمُه فيه مما يرّضى به هو سبحانه، والتوكّلِ معنَى يَلْتَمِمْ من عِلْمِ العبدِ بكفايةِ الله وحُسنِ اختيارِه لعبدِه، وثقّته به، ورّضاهُ بما يفعله به،

وَيَخْتَارُهُ لَهُ.

• وإذا تجلّى بصفات العِزِّ، والكِبَرِيَاءِ = أعطتْ نَفْسُهُ المَطمَئِنَّةُ ما وصلتْ إليه من الدُّلِّ لعَظَمَتِهِ، والانكسارِ لِعِزَّتِهِ، والخضوعِ لكِبَرِيَاءِهِ، وخشوعِ القلبِ والجوارحِ له؛ فتعلّوه السَّكِينَةُ والوَاقَرُ في قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وجوارِحِهِ وَسَمْتِهِ، ويذهبُ طَيْشُهُ وتَوَفُّهُ وَحِدَّتُهُ.

وجَماعُ ذلك أَنَّهُ سبحانه يَتَعَرَّفُ إلى العبدِ بصفاتِ إلهيَّته تارةً، وبصفاتِ ربوبيَّته تارةً:

* فيُوجِبُ لَهُ شُهُودُ صِفَاتِ الإِلَهِيَّةِ: المَحَبَّةَ الْخَاصَّةَ، والشَّوْقَ إلى لِقَائِهِ، والأُنْسَ والفرَحَ بِهِ، والسُّرُورَ بِخِدْمَتِهِ، والمَنَافَسَةَ فِي قُرْبِهِ، والتَّوَدُّدَ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ، واللَّهَجَ بِذِكْرِهِ، والفِرَارَ مِنَ الْخَلْقِ إِلَيْهِ، وَيَصِيرُ هُوَ وَحْدَهُ هَمَّهُ دُونَ مَا سِوَاهُ.

* وَيُوجِبُ لَهُ شُهُودُ صِفَاتِ الرِّبُوبِيَّةِ: التَّوَكُّلَ عَلَيْهِ، والافتِقَارَ إِلَيْهِ، والاستِعَانَةَ بِهِ، والدُّلَّ والخضوعَ والانكسارَ لَهُ.

وكمالُ ذلك أَنَّ يَشْهَدَ رُبُوبِيَّتُهُ فِي إلهيَّته، وإلهيَّته فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَحَمْدُهُ فِي مُلْكِهِ، وَعِزُّهُ فِي عَفْوِهِ، وَحِكْمَتُهُ فِي قِضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَنِعْمَتُهُ فِي بَلَائِهِ، وَعَطَاءُهُ فِي مَنَعِهِ، وَبِرُّهُ وَلُطْفُهُ وَإِحْسَانُهُ وَرَحْمَتُهُ فِي قِيُومِيَّتِهِ، وَعَدْلُهُ فِي انْتِقَامِهِ، وَجُودُهُ وَكَرَمُهُ فِي مَغْفِرَتِهِ وَسِتْرِهِ وَتَجَاوُزِهِ، وَيَشْهَدُ حِكْمَتُهُ وَنِعْمَتُهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَعِزُّهُ فِي رِضَاهِ وَغَضَبِهِ، وَحِلْمُهُ فِي إِمْهَالِهِ، وَكَرَمُهُ فِي إِقْبَالِهِ، وَغِنَاهُ فِي إِعْرَاضِهِ.

وَأَنْتَ إِذَا تَدَبَّرْتَ الْقُرْآنَ وَأَجَرْتَهُ مِنَ التَّحْرِيفِ وَأَنْ تَقْضِيَ عَلَيْهِ بَآرَاءَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَأَفْكَارِ الْمُتَكَلِّفِينَ = أَشْهَدُكَ مَلِكًا قِيُومًا فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ، عَلَى عَرْشِهِ، يُدَبِّرُ أَمْرَ عِبَادِهِ، يَأْمُرُ وَيَنْهَى، وَيُرْسِلُ الرُّسُلَ، وَيُنْزِلُ الْكُتُبَ، وَيَرْضَى وَيَغْضِبُ، وَيُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، وَيُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيَخْفِضُ وَيَرْفَعُ، يَرَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ

وَيَسْمَعُ، وَيَعْلَمُ السِّرَّ وَالْعَلَانِيَةَ، فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ، مَوْصُوفٌ بِكُلِّ كَمَالٍ، مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ، لَا تَتَحَرَّكُ ذَرَّةٌ فَوْقَهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تَسْقُطُ وَرَقَةٌ إِلَّا بِعِلْمِهِ، وَلَا يَشْفَعُ أَحَدٌ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، لَيْسَ لِعِبَادِهِ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ.

تنبيه : [عبر ومواعظ]

* اجتنب مَنْ يُعَادِي أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ لئَلَّا يُعَذِّبَكَ خُسْرَانُهُ.

* احترزْ مِنْ عَدُوِّينَ هَلَكَ بِهِمَا أَكْثَرُ الْخَلْقِ: صَادٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِشُبُهَاتِهِ وَزُخْرُفِ قَوْلِهِ، وَمُفْتَوْنِ بَدْيَاهِ وَرِئَاسَتِهِ.

* مِنْ خُلِقَ فِيهِ قُوَّةٌ وَاسْتَعْدَادٌ لشيءٍ كَانَتْ لَذَّتُهُ فِي اسْتِعْمَالِ تِلْكَ الْقُوَّةِ فِيهِ، فَلَذَّةٌ مَنْ خُلِقَتْ فِيهِ قُوَّةٌ وَاسْتَعْدَادٌ لِلْجَمَاعِ اسْتِعْمَالُ قُوَّتِهِ فِيهِ، وَلَذَّةٌ مَنْ خُلِقَتْ فِيهِ قُوَّةُ الْغَضَبِ وَالتَّوَتُّبِ اسْتِعْمَالُ قُوَّتِهِ الْغَضَبِيَّةِ فِي مُتَعَلِّقِهَا، وَمَنْ خُلِقَتْ فِيهِ قُوَّةُ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ فَلَذَّتُهُ بِاسْتِعْمَالِ قُوَّتِهِ فِيهِمَا، وَمَنْ خُلِقَتْ فِيهِ قُوَّةُ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ فَلَذَّتُهُ بِاسْتِعْمَالِ قُوَّتِهِ وَصَرَفِهَا إِلَى الْعِلْمِ، وَمَنْ خُلِقَتْ فِيهِ قُوَّةُ الْحُبِّ لِلَّهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالْعُكُوفِ بِالْقَلْبِ عَلَيْهِ، وَالشُّوقِ إِلَيْهِ، وَالْأُنْسِ بِهِ = فَلَذَّتُهُ وَنَعِيمُهُ اسْتِعْمَالُ هَذِهِ الْقُوَّةِ فِي ذَلِكَ، وَسَائِرُ اللَّذَاتِ دُونَ هَذِهِ اللَّذَّةِ مُضْمَحَلَةٌ فَانِيَةٌ، وَأَحْمَدُ عَاقِبَتِهَا أَنْ تَكُونَ لَا لَهُ وَلَا عَلَيْهِ.

تنبيه : [أمراض النفس]

• يَا أَيُّهَا الْأَعْزَلُ! احْذَرِ فِرَاسَةَ الْمُتَّقِي؛ فَإِنَّهُ يَرَى عَوْرَةَ عَمَلِكَ مِنْ وَرَاءِ سِتْرِ: "اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ".

• سَبْحَانَ اللَّهِ! فِي النَّفْسِ: كِبَرُ إِبْلِيسَ، وَحَسَدُ قَايِلَ، وَعُتُوُّ عَادٍ، وَطُغْيَانُ ثَمُودَ، وَجُرْأَةُ نَمْرُودَ، وَاسْتِطَالَةُ فِرْعَوْنَ، وَبَغْيُ قَارُونَ، وَقِحَةُ هَامَانَ، وَهَوَى بَلْعَامَ، وَحِيلُ أَصْحَابِ السَّبْتِ، وَتَمَرُّدُ الْوَلِيدِ، وَجَهْلُ أَبِي جَهْلٍ.

وفيها من أخلاق البهائم: حرص الغراب، وشره الكلب، ورعونة الطاووس، ودناءة الجعل، وعقوق الضب، وحقد الجمل، ووثوب الفهد، وصولة الأسد، وفسق الفأرة، وخبث الحية، وعبث القرد، وجمع النملة، ومكر الثعلب، وخفة الفراش، ونوم الضبع، غير أن الرياضة والمجاهدة تذهب ذلك.

فمن استرسل مع طبعه فهو من هذا الجند، ولا تصلح سلعته لعقد **﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾** [التوبة: ١١١]؛ فما اشترى إلا سلعة هذبها الإيمان؛ فخرجت من طبعها إلى بلد سكائه التائبون العابدون..

- سلم المبيع قبل أن يتلف في يدك؛ فلا يقبله المشتري!
- قد علم المشتري بعيب السلعة قبل أن يشتريها؛ فسلمها ولك الأمان من الرد.

• قدر السلعة يعرف بقدر مشتريها، والتمن المبدول فيها، والمنادي عليها؛ فإذا كان المشتري عظيمًا، والتمن خطيرًا، والمنادي جليلاً = كانت السلعة نفيسة.

فصل [عبر ومواعظ]

- * علّمت كلبك فهو يترك شهوته في تناول ما صاده؛ احترامًا لنعمتك، وخوفًا من سطوتك، وكم علّمك معلّم الشرع وأنت لا تقبل!
- * حرّم صيد الجاهل والممسك لنفسه؛ فما ظن الجاهل الذي أعماله لهوى نفسه!

* جمع فيك عقل الملك، وشهوة البهيمّة، وهوى الشيطان، وأنت للغالب عليك من الثلاثة: إن غلبت شهوتك وهواك زدت على مرتبة ملك، وإن غلبك هواك وشهوتك نقصت عن مرتبة كلب.

✽ لَمَّا صَادَ الْكَلْبُ لِرَبِّهِ أُبِيحَ صَيْدُهُ، وَلَمَّا أُمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ حُرِّمَ مَا صَادَهُ.

✽ مَصْدَرُ مَا فِي الْعَبْدِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالصِّفَاتِ الْمَمْدُوحَةِ وَالْمَذْمُومَةِ مِنْ صِفَةِ الْمُعْطِيِّ الْمَانِعِ؛ فَهُوَ سَبْحَانَهُ يُصَرِّفُ عِبَادَهُ بَيْنَ مَقْتَضَى هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ؛ فَحُظُّ الْعَبْدِ الصَّادِقِ مِنْ عِبَادَتِهِ بِهِمَا: الشُّكْرُ عِنْدَ الْعَطَاءِ، وَالْاِفْتِقَارُ عِنْدَ الْمَنْعِ؛ فَهُوَ سَبْحَانَهُ يُعْطِيهِ لِيَشْكُرَهُ، وَيَمْنَعُهُ لِيَفْتَقِرَ إِلَيْهِ، فَلَا يَزَالُ شُكُورًا فَقِيرًا.

فصل: [أصول المعاصي]

أُصُولُ الْمَعَاصِي كُلُّهَا، كِبَارُهَا وَصَغَارُهَا، ثَلَاثَةٌ:

✽ تَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِغَيْرِ اللَّهِ.

✽ وَطَاعَةُ الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ وَالْقُوَّةِ الشَّهَوَانِيَّةِ.

وهي الشركُ والظلمُ والفواحشُ:

● فغَايَةُ التَّعَلُّقِ بِغَيْرِ اللَّهِ شَرْكٌ، وَأَنْ يُدْعَى مَعَهُ إِلَهٌ آخَرُ.

● وَغَايَةُ طَاعَةِ الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ الْقَتْلُ.

● وَغَايَةُ طَاعَةِ الْقُوَّةِ الشَّهَوَانِيَّةِ الزَّنا.

ولهذا جمعَ اللهُ سَبْحَانَهُ بَيْنَ الثَّلَاثَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ

وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وهذه الثلاثةُ يدَعُو بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ؛ فَالشَّرْكُ يَدْعُو إِلَى الظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ،

كَمَا أَنَّ الْإِخْلَاصَ وَالتَّوْحِيدَ يَصْرِفُهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ

عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فصل: [أنواع هجر القرآن]

هجر القرآن أنواع:

- أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.
 - والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.
 - والثالث: هجر تحكيمة والتحاكم إليه.
 - والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.
 - والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها؛ فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] وإن كان بعض الهجر أهون من بعض.
- فكل هؤلاء في صدورهم خرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدون في صدورهم، ولا تجد مبتدعاً في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته، كما أنك لا تجد ظالماً فاجراً إلا وفي صدره حرج من الآيات تحول بينه وبين إرادته، فتدبر هذا المعنى، ثم ارض لنفسك بما تشاء.

فائدة جليلة: [فرغ قلبك للأخرة]

إذا أصبح العبد وأمسى - وليس همُّه إلا الله وحده - تحمّل الله سبحانه حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمّه، وفرغ قلبه لمحبيته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته، وإن أصبح وأمسى والدنيا همُّه حمّله الله همومها وغمومها وأنكادها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ

ذَكَرَ الرَّحْمَنُ نُفُوسَهُ، شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ، قَرِينٌ ﴿﴾ [الزخرف: ٣٦].

فائدة: [العلم والعمل]

• العلم: نقل صورة المعلوم من الخارج وإثباتها في النفس.

• والعمل: نقل صورة عملية من النفس وإثباتها في الخارج.

فإن كان الثابت في النفس مطابقاً للحقيقة في نفسها فهو علمٌ صحيحٌ.

وكثيراً ما يثبت ويتراءى في النفس صورٌ ليس لها وجودٌ حقيقي، فيظنُّها الذي قد أثبتَّها في نفسه علماً، وإنما هي مُقدَّرةٌ لا حقيقة لها، وأكثرُ علومِ الناسِ من هذا الباب.

وما كان منها مطابقاً للحقيقة في الخارج فهو نوعان:

• نوعٌ تكملُ النفسُ بإدراكه والعلمُ به: وهو العلمُ بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وكتبه، وأمره ونهيه.

• ونوعٌ لا يحصلُ للنفسِ به كمالٌ: وهو كلُّ علمٍ لا يضرُّ الجهلُ به؛ فإنه لا ينفعُ العلمُ به، وكان النبي ﷺ يستعِذُّ بالله من علمٍ لا ينفعُ^(١)، وهذا حالُ أكثرِ العلومِ الصحيحةِ المطابقةِ التي لا يضرُّ الجهلُ بها شيئاً؛ كالعلمُ بالفلكِ ودقائقه ودرجاته، وعددِ الكواكبِ، ومقاديرِها، والعلمُ بعددِ الجبالِ، وألوانِها، ومساحاتها ونحو ذلك.

فشرفُ العلمِ بحسبِ شرفِ معلومه، وشدةِ الحاجةِ إليه، وليس ذلك إلا العلمُ بالله وتوابع ذلك.

وأما العملُ: فآفتهُ عدمُ مطابقته لمرادِ الله الديني، الذي يُحبُّه الله ويرضاهُ،

(١) مسلم (٢٧٢٢).

وذلك يكون من فساد العلم تارةً، ومن فساد الإرادة تارةً.

○ ففساده من جهة العلم: أن يعتقد أن هذا مشروع محبوب لله، وليس كذلك، أو يعتقد أنه يُقربُه إلى الله وإن لم يكن مشروعاً، فيظن أنه يتقرب إلى الله بهذا العمل، وإن لم يعلم أنه مشروع.

○ وأما فسادُه من جهة القصد: فألا يقصد به وجه الله والدار الآخرة، بل يقصد به الدنيا والخلق.

وهاتان الافتتان في العلم والعمل لا سبيل إلى السلامة منهما إلا بمعرفة ما جاء به الرسول في باب العلم والمعرفة، وإرادة وجه الله والدار الآخرة في باب القصد والإرادة؛ فمتى خلا من هذه المعرفة وهذه الإرادة فسَدَ عِلْمُهُ وَعَمَلُهُ.

والإيمان واليقين يُورثان صحة المعرفة وصحة الإرادة، وهما يُورثان الإيمان ويُمدّانه.

ومن هنا يتبين انحراف أكثر الناس عن الإيمان؛ لانحرافهم عن صحة المعرفة وصحة الإرادة.

ولا يتم الإيمان إلا بتلقي المعرفة من مشكاة النبوة، وتجريد الإرادة عن شوائب الهوى وإرادة الخلق؛ فيكون علمه مقتبساً من مشكاة الوحي، وإرادته لله والدار الآخرة؛ فهذا أصح الناس علماً وعملاً، وهو من الأئمة الذين يهتدون بأمر الله، ومن خلفاء رسوله ﷺ في أمته.

قاعدة: [ظاهر الإيمان وباطنه]

الإيمان له ظاهر وباطن، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته، فلا ينفع ظاهر لا باطن له، وإن حُقق به الدماء وعُصِمَ به المال والذرية، ولا يُجزئ باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذّر بعجز أو إكراه

وخوف هلاك، فتخلفُ العملُ ظاهرًا مع عدم المانع دليلٌ على فسادِ الباطنِ وخلوِّهِ من الإيمان، ونقصُهُ دليلٌ نقصِهِ، وقوّته دليلٌ قوّتِهِ.

فالإيمانُ قلبُ الإسلام ولُبُّهُ، واليقينُ قلبُ الإيمان ولُبُّهُ، وكلُّ علمٍ وعملٍ لا يزيدُ الإيمانَ واليقينَ قوّةً فمدخولٌ، وكلُّ إيمانٍ لا يبعثُ على العملِ فمدخولٌ.

قاعدة: [أنواع التوكل وحقيقته]

التوكُّلُ على الله نوعان:

• أحدهما: توكُّلٌ عليه في جلبِ حوائجِ العبدِ وحظوظِهِ الدنيويّة، أو دفعِ مكروهاتِهِ ومصائبِهِ الدنيويّة.

• والثاني: التوكُّلُ عليه في حصولِ ما يحبُّهُ هو ويرضاهُ من الإيمانِ واليقينِ والجهادِ والدعوةِ إليه.

وبينَ النوعينِ من الفضلِ ما لا يُحصيه إلا اللهُ، فمتى توكَّلَ عليه العبدُ في النوعِ الثاني حقَّ توكُّلِهِ كفاهُ النوعُ الأوَّلُ تمامَ الكفايةِ، ومتى توكَّلَ عليه في النوعِ الأوَّلِ دونَ الثاني كفاهُ أيضًا، لكن لا يكونُ له عاقبةُ المتوكِّلِ فيما يحبُّهُ ويرضاهُ.

فأعظمُ التوكُّلِ عليه: التوكُّلُ في الهدايةِ وتجريدِ التوحيدِ ومتابعةِ الرَّسولِ ﷺ وجهادِ أهلِ الباطلِ، فهذا توكُّلُ الرُّسلِ وخاصّةُ أتباعِهِم.

وسرُّ التوكُّلِ وحقيقتهُ هو: اعتمادُ القلبِ على الله وحده، فلا يضرُّهُ مباشرةُ الأسبابِ مع خلوِّ القلبِ من الاعتمادِ عليها والركونِ إليها، كما لا ينفعُهُ قوله: توكلتُ على الله، مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به، فتوكُّلُ اللسانِ شيءٌ وتوكُّلُ القلبِ شيءٌ، كما أنَّ توبةَ اللسانِ مع إصرارِ القلبِ شيءٌ، وتوبةَ القلبِ وإن لم ينطقِ اللسانُ شيءٌ، فقولُ العبدِ: توكلتُ على الله، مع اعتمادِ قلبِهِ على غيره، مثلُ قوله: تبتُ إلى الله، وهو مُصرٌّ على معصيته مرْتكبٌ لها.

فائدة: [غاية الجهل]

الجاهل يشكو الله إلى الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه، فإنه لو عرف ربه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكوا إليهم.

ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقته وضرورته، فقال: يا هذا، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك.

وفي ذلك قيل:

وإذا شكوت إلى ابنِ آدمِ إنما ** تشكو الرحيمِ إلى الذي لا يرحمُ

﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَا

أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وقوله: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُمْصِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا

قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا أَقَلُّ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فالمراتبُ ثلاثة:

- أحسنها أن تشكو الله إلى خلقه.
- وأعلاها أن تشكو نفسك إليه.
- وأوسطها أن تشكو خلقه إليه.

قاعدة جلييلة: [الاستجابة لله وللرسول]

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فتضمنت هذه الآية أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهراً وباطناً، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان.

ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول.

فائدة جلييلة: [أنفع الأشياء مخالفة النفس]

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شُرُّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقوله عز وجل: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

* فالآية الأولى في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية.

* والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية.

فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوة الغضبية خشية على نفسه منه، وهذا المكروه خير له في معاشه ومعاده، ويحب الموادعة والمشاركة، وهذا المحبوب

شرُّ له في معاشه ومعاده.

وكذلك يكره المرأة لو صف من أوصافها، وله في إمساكها خيرٌ كثيرٌ لا يعرفه، ويحبُّ المرأة لو صف من أوصافها، وله في إمساكها شرٌّ كثيرٌ لا يعرفه.

فالإنسان كما وصفه به خالقه ظلومٌ جهولٌ، فلا ينبغي أن يجعل المعيار على ما يضره وينفعه ميله وحبّه ونفرتّه وبُغضه، بل المعيار على ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه.

فأنفع الأشياء له على الإطلاق طاعةُ ربِّه بظاهره وباطنه، وأضرُّ الأشياء عليه على الإطلاق معصيته بظاهره وباطنه، فإذا قام بطاعته وعبوديته مخلصاً له، فكلُّ ما يجري عليه ممّا يكرهه يكون خيراً له، وإذا تخلّى عن طاعته وعبوديته فكلُّ ما هو فيه من محبوب هو شرٌّ له، فمن صحّت له معرفةُ ربِّه والفقهُ في أسمائه وصفاته، علِمَ يقيناً أنَّ المكروهات التي تصيبه والمحن التي تنزل به: فيها ضروبٌ من المصالح والمنافع التي لا يُحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحةُ العبد فيما يكره أعظمُ منها فيما يحبُّ.

فعامةُ مصالح النفوس في مكروهاتها، كما أنَّ عامةَ مضارّها وأسبابِ هلكتها في محبوباتها.

فأحكمُ الحاكمين وأرحمُ الراحمين وأعلمُ العالمين، الذي هو أرحمُ بعباده منهم بأنفسهم ومن آبائهم وأمهاتهم، إذا أنزل بهم ما يكرهون كان خيراً لهم من ألا يُنزلهم، نظراً منه لهم، وإحساناً إليهم، ولطفاً بهم، ولو مكّنوا من الاختيار لأنفسهم لعجزوا عن القيام بمصالحهم علماً وإرادةً وعملاً، لكنّه سبحانه تولّى تدبيرَ أمورهم بموجب علمه وحكمته ورحمته، أحبوا أم كرهوا، فعرف ذلك الموقنون بأسمائه وصفاته، فلم يتهموه في شيء من أحكامه، وخفي ذلك على

الجهال به وبأسماؤه وصفاته، فنازعوه تدبيره وقدحوا في حكمته ولم ينقادوا لحكمه، وعارضوا حكمه بعقولهم الفاسدة، وآرائهم الباطلة، وسياساتهم الجائرة، فلا لربهم عرفوا، ولا لمصالحهم حصلوا، والله الموفق.

فائدة: [الزهد في الدنيا]

لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

* **نظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها** واضمحلالها ونقصها وخسستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع، مع ما يعقب من الحسرة والأسف؛ فطالبها لا ينفك من هم قبل حصولها، وهم في حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها. فهذا أحد النظرين.

* **النظر الثاني في الآخرة، وإقبالها ومجيئها ولا بُدَّ، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما هنا؛ فهي كما قال الله سبحانه: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١٧) [الأعلى: ١٧]** فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة.

فإذا تم له هذان النظران أثر ما يقتضي العقل إشارته، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه.

فكل أحد مطبوع على ألا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة، إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل، وقويت رغبته في الأعلى الأفضل، فإذا أثر الفاني الناقص كان ذلك إما لعدم تبين الفضل له، وإما لعدم رغبته في الأفضل؛ وكل واحد من الأمرين يدل على ضعف الإيمان وضعف العقل والبصيرة؛ فإن الراغب في الدنيا الحريص عليها المؤثر لها: إما أن

يُصَدَّقُ بَأَنَّ مَا هُنَاكَ أَشْرَفُ وَأَفْضَلُ وَأَبْقَى، وَإِمَّا أَلَّا يُصَدَّقَ. فَإِنْ لَمْ يُصَدَّقْ بِذَلِكَ كَانَ عَادِمًا لِلْإِيمَانِ رَأْسًا، وَإِنْ صَدَّقَ بِذَلِكَ وَلَمْ يُؤْثِرْهُ كَانَ فَاسِدًا الْعَقْلِ سَيِّئًا الْإِخْتِيَارِ لِنَفْسِهِ.

وهذا تقسيمٌ حاصرٌ ضروريٌّ لا ينفكُّ العبدُ من أحدِ القسمينِ منه؛ فإِثَارُ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ: إِمَّا مِنْ فَسَادٍ فِي الْإِيمَانِ، وَإِمَّا مِنْ فَسَادٍ فِي الْعَقْلِ، وَمَا أَكْثَرَ مَا يَكُونُ مِنْهُمَا!

ولهذا نَبَّهَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وراءَ ظَهْرِهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ، وَصَرَفُوا عَنْهَا قُلُوبَهُمْ، وَاطَّرَحُوهَا وَلَمْ يَأْلُفُوهَا، وَهَجَرُوهَا وَلَمْ يَمِيلُوا إِلَيْهَا، وَعَدُّوها سِجْنًا لَا جَنَّةَ، فَزَهَّدُوا فِيهَا حَقِيقَةَ الزُّهْدِ، وَلَوْ أَرَادُوهَا لَنَالُوا مِنْهَا كُلَّ مَحْبُوبٍ، وَلَوْ صَلَّوْا مِنْهَا إِلَى كُلِّ مَرْغُوبٍ؛ فَقَدْ عُرِضَتْ عَلَيْهِ مَفَاتِيحُ كُنُوزِهَا فَرَدَّهَا، وَفَاضَتْ عَلَى أَصْحَابِهِ فَاتَرَوْا بِهَا وَلَمْ يَبِيعُوا حَظَّهُمْ مِنَ الْآخِرَةِ بِهَا، وَعَلِمُوا أَنَّهَا مَعْبَرٌ وَمَمَرٌ لَا دَارَ مُقَامٍ وَمُسْتَقَرٍّ، وَأَنَّهَا دَارُ عُبُورٍ لَا دَارَ سُرُورٍ، وَأَنَّهَا سَحَابَةٌ صَيْفٍ تَتَقَشَّعُ عَنْ قَلِيلٍ، وَخِيَالٌ طَيْفٍ مَا اسْتَتَمَ الزِّيَارَةَ حَتَّى أَذِنَ بِالرَّحِيلِ.

قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ إِنَّمَا أَنَا كَرَائِبٍ قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»^(١)، وقال: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يُدْخَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعُهُ فِي السِّمِّ؛ فَلْيَنْظُرْ بِمِ تَرَجِعُ؟»^(٢).

وقال خَالِقُهَا سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْطَأَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا آتْنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ

(١) الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩).

(٢) مسلم (٢٨٥٨).

الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْكُرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ [يونس: ٢٤ - ٢٥]، فأخبر عن خِصَّة الدنيا وزَهْد فيها، وأخبر عن دارِ السَّلام ودعا إليها.

قاعدة: [أساس كل خير]

أساسُ كلِّ خيرٍ أنْ تعلمَ أنَّ ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لم يشأْ لم يكنْ، فتتيقنَ حينئذٍ أنَّ الحسناتِ من نِعَمِهِ فتشكره عليها، وتتضرَّعُ إليه أنْ لا يقطعها عنكَ، وأنَّ السيئاتِ من خذلانه وعقوبته، فتبتهلُ إليه أنْ يحولَ بينكَ وبينها، ولا يَكِلَكَ في فعلِ الحسناتِ وتركِ السيئاتِ إلى نفسك.

وقد أجمعَ العارفونَ على أنَّ كلَّ خيرٍ فأصلُهُ بتوفيقِ اللهِ للعبدِ، وكلَّ شرٍّ فأصلُهُ خذلانُهُ لعبده، وأجمعوا أنَّ التوفيقَ أنْ لا يَكِلَكَ اللهُ إلى نفسك، وأنَّ الخِذلانَ هو أنْ يُخَلِّيَ بينَكَ وبينَ نفسك، فإذا كانَ كلُّ خيرٍ فأصلُهُ التوفيقُ - وهو بيدِ اللهِ لا بيدِ العبدِ - فمفتاحُ الدُّعاءِ والافتقارِ وصدق اللِّجاءِ والرَّغبة والرَّهبةُ إليه، فمتى أعطى العبدَ هذا المفتاحَ فقد أرادَ أنْ يفتحَ له، ومتى أضلَّهُ عن المفتاحِ بقي بابُ الخيرِ مُرتجاً دونه.

قالَ أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب: «إِنِّي لَا أَحْمِلُ هَمَّ الْإِجَابَةِ، وَلَكِنْ هَمَّ الدُّعَاءِ، فَإِذَا أُلْهِمْتُ الدُّعَاءَ فَإِنَّ الْإِجَابَةَ مَعَهُ».

وعلى قَدَرِ نِيَّةِ العبدِ وهَمَّتِهِ ومراده ورغبتِهِ في ذلك، يكون توفيقُهُ سبحانه وإعانتُهُ؛ فالمعونةُ من اللهِ تنزلُ على العبادِ على قَدَرِ هَمِّهِمْ وثباتِهِمْ ورغبتِهِمْ ورهبتِهِمْ، والخِذلانُ ينزلُ عليهم على حسب ذلك، فالله سبحانه - أحكم الحاكمين وأعلم العالمين - يضعُ التوفيقَ في مواضعه اللائقة به، والخِذلانَ في مواضعه اللائقة به، وهو العليمُ الحكيمُ، وما أُتِيَ مَنْ أُتِيَ إِلَّا مِنْ قِبَلِ إِضَاعَتِهِ الشُّكْرَ وإهمالِ الافتقارِ والدُّعاءِ، ولا ظَفَرَ مَنْ ظَفَرَ بِمَشِيئَةِ اللهِ وعونه إِلَّا بِقِيَامِهِ بِالشُّكْرِ

وصدق الافتقار والدُّعاء.

وملاك ذلك الصبر؛ فإنه من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطِعَ الرأس فلا بقاء للجسد.

فائدة جلييلة: [مفاسد إيشار الدنيا]

كلُّ من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبّها، فلا بدَّ أن يقول على الله غير الحقِّ في فتواه وحُكمه، في خبره وإلزامه؛ لأنَّ أحكامَ الرَّبِّ سبحانه كثيرًا ما تأتي على خلاف أغراض النَّاسِ، ولا سيَّما أهل الرياسة، والذين يتبعون الشهوات؛ فإنهم لا تتمُّ لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحقِّ ودفعه كثيرًا.

فإذا كان العالمُ والحاكمُ مُحبًّا للرئاسة مُتَّبِعًا للشهوات؛ لم يتمَّ له ذلك إلا بدفع ما يُضادُّه من الحقِّ، ولا سيَّما إذا قامت له شبهةٌ، فتتَّفَقُ الشبهةُ والشهوةُ ويشوِّرُ الهوى، فيخفى الصوابُ وينطمس وجهُ الحقِّ، وإن كان الحقُّ ظاهرًا لا خفاء به ولا شبهة فيه؛ أقدم على مخالفته، وقال: لي مخرجٌ بالتوبة، وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

وقال تعالى فيهم أيضًا: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

فصل

فهذا حال العالم المؤثر الدنيا على الآخرة، وأما العابد الجاهل فآفته من إغراضه عن العلم وأحكامه وغلبة خياله وذوقه ووجده وما تهواه نفسه؛ ولهذا قال سفيان بن عُيينة وغيره: احذروا فتنة العالم الفاجر وفتنة العابد الجاهل؛ فإنَّ فتنتهما

فتنةٌ لكلِّ مفتونٍ، فهذا بجهله يصدُّ عن العلمِ وموجبه، وذاك بغيه يدعو إلى الفجورِ.

وقد ضربَ الله سبحانه مثلَ النوعِ الآخرِ بقوله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦) فكانَ عَقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ [الحشر: ١٦ - ١٧]، وقصتهُ معروفةٌ، فإنه بنى أساسَ أمره على عبادةِ الله بجهلٍ؛ فأوقعهُ الشيطانُ بجهله، وكفرهُ بجهله. فهذا إمامٌ كلِّ عابِدٍ جاهلٍ؛ يكفرُ ولا يدري، وذاك إمامٌ كلِّ عالمٍ فاجرٍ يختارُ الدنيا على الآخرة.

وقد جعلَ سبحانه رضى العبدِ بالدنيا وطمأننته وغفلته عن معرفة آياته وتدبرها والعمل بها سببَ شقائه وهلاكه.

ولا يجتمعُ هذان - أعني: الرضى بالدنيا والغفلة عن آياتِ الربِّ - إلَّا في قلب مَنْ لا يؤمنُ بالمعادِ ولا يرجو لقاءَ ربِّ العبادِ، وإلا فلو رَسَخَ قدمُهُ في الإيمانِ بالمعادِ؛ لما رَضِيَ بالدنيا ولا اطمأنَّ إليها، ولا أَعْرَضَ عن آياتِ الله.

وأنتَ إذا تأملتَ أحوالَ الناسِ وجدتَ هذا الضربَ هو الغالبُ على الناسِ، وهم عمَّارُ الدنيا، وأقلُّ الناسِ عددًا مَنْ هو على خلافِ ذلك، وهو من أشدِّ الناسِ غربةً بينهم؛ لهم شأنٌ وله شأنٌ، علمُهُ غيرُ علومهم، وإرادتُهُ غيرُ إرادتهم، وطريقُهُ غيرُ طريقهم؛ فهو في وادٍ وهم في وادٍ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (٧) أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ [يونس: ٧ - ٨]، ثم ذَكَرَ وَصْفَ ضِدِّ هؤُلاءِ ومآلهم وعاقبتهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (١)

[يونس: ٩]؛ فهو لاء إيمانهم بقاء الله أوزرَهم عَدَمَ الرِّضَىٰ بالدُّنْيَا، والطُّمَأْنِينَةُ إِلَيْهَا، ودوامُ ذِكْرِ آيَاتِهِ.

فهذه موارِيثُ الإيمانِ بالمعادِ، وتلك موارِيثُ عَدَمِ الإيمانِ به، والغفلةُ عنه.

فائدة عظيمة: [أفضل ما اكتسبته النفوس]

أَفْضَلُ مَا اكْتَسَبَتْهُ النَّفُوسُ وَحَصَلَتْهُ الْقُلُوبُ وَنَالَ بِهِ الْعَبْدُ الرَّفْعَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: هُوَ الْعِلْمُ وَالْإِيمَانُ، وَلِهَذَا قَرَنَ بَيْنَهُمَا سُبْحَانَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦].

وقوله: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وهؤلاء هم خلاصةُ الوجودِ ولُبُّهُ، والمؤهلونَ للمراتبِ العاليةِ.

ولكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ غَالِطُونَ فِي حَقِيقَةِ مَسْمَى الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ اللَّذَيْنِ بِهِمَا السَّعَادَةُ وَالرَّفْعَةُ، وَفِي حَقِيقَتِهِمَا، حَتَّى إِنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ تَظُنُّ أَنَّ مَا مَعَهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ هُوَ هَذَا الَّذِي بِهِ تُنَالُ السَّعَادَةُ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَيْسَ مَعَهُمْ إِيمَانٌ يُنَجِّي، وَلَا عِلْمٌ يَرْفَعُ، بَلْ قَدْ سَدُّوا عَلَى نَفْسِهِمْ طَرِيقَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ اللَّذَيْنِ جَاءَ بِهِمَا الرَّسُولُ ﷺ وَدَعَا إِلَيْهِمَا الْأُمَّةُ، وَكَانَ عَلَيْهَا هُوَ وَأَصْحَابُهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَتَابِعُوهُمْ عَلَى مَنَاجِحِهِمْ وَأَثَارِهِمْ.

فصل: [الإيمان بين الدَّعْوَى والحقيقة]

وَأَمَّا الْإِيمَانُ فَأَكْثَرُ النَّاسِ، أَوْ كُلُّهُمْ يَدَّعَوْنَهُ ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وَأَكْثَرُ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا عِنْدَهُمْ إِيمَانٌ مُجْمَلٌ، وَأَمَّا الْإِيمَانُ الْمَفْصَّلُ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مَعْرِفَةً وَعِلْمًا وَإِقْرَارًا وَمُحِبَّةً، وَمَعْرِفَةً بِضَدِّهِ وَكَرَاهِيَّتِهِ وَبُغْضِهِ، فَهَذَا إِيمَانُ خَوَاصِّ الْأُمَّةِ وَخَاصَّةِ الرَّسُولِ، وَهُوَ إِيمَانُ الصَّدِيقِ وَحَزْبِهِ.

- وكثيرٌ من النَّاسِ حظُّهم من الإيمانِ الإقرارُ بوجودِ الصَّانعِ.
- وآخرونَ الإيمانُ عندهم هو التكلُّمُ بالشهادتين.
- وآخرونَ عندهم الإيمانُ مجردُ تصديقٍ بأنَّ اللهَ سبحانه خالقُ السمواتِ والأرضِ، وأنَّ محمدًا عبدهُ ورسولُهُ، وإنَّ لم يُقرَّ بلسانِهِ ولم يعملْ شيئًا.
- وآخرونَ عندهم الإيمانُ هو جحدُ صفاتِ الرَّبِّ تعالى.
- وآخرونَ عندهم الإيمانُ عبادةُ الله بحُكمِ أذواقِهِم ومواجيدِهِم.
- وآخرونَ الإيمانُ عندهم ما وجدوا عليه آباءَهُم وأسلافَهُم، بل إيمانُهُم

مبنِّي على مقدمتين:

- إحداهما: أنَّ هذا قولُ أسلافنا وآبائنا.
 - والثانية: أنَّ ما قالوه فهو الحقُّ.
 - وآخرونَ عندهم الإيمانُ مكارمُ الأخلاقِ وحُسنُ المعاملةِ.
 - وآخرونَ عندهم الإيمانُ التجرُّدُ من الدُّنيا وعلائقِها.
- وكلُّ هؤلاءِ لم يعرفوا حقيقةَ الإيمانِ ولا قاموا به ولا قامَ بهم، وهم أنواع:
- منهم: مَنْ جعلَ الإيمانَ ما يضادُّ الإيمانَ.
 - ومنهم: مَنْ جعلَ الإيمانَ ما لا يُعتبرُ في الإيمانِ.
 - ومنهم: مَنْ جعله ما هو شرطٌ فيه ولا يكفي في حصوله.
 - ومنهم: مَنْ اشترطَ في ثبوته ما يناقضه ويضاده.
 - ومنهم: مَنْ اشترطَ فيه ما ليسَ منه بوجهٍ.

والإيمان وراء ذلك كله، وهو حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ والتصديق به عقداً، والإقرار به نطقاً، والانقياد له محبةً وخضوعاً، والعمل به باطنًا وظاهرًا، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان.

وكماله في الحب في الله والبغض في الله، والعطاء لله والمنع لله، وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده. والطريق إليه تجريد متابعة رسوله ظاهرًا وباطنًا، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله، وبالله التوفيق.

فائدة جلية: [ترك المألوفات لله]

* إنما يجد المشقة في ترك المألوفات والعوائد من تركها لغير الله، فأمّا من تركها صادقًا مخلصًا من قلبه لله؛ فإنه لا يجد في تركها مشقةً إلّا في أول وهلة، ليُمْتَحَن أصادق هو في تركها أم كاذب؟ فإن صبر على تلك المشقة قليلًا استحالت لذة.

قال ابن سيرين: سمعت شريحًا يحلف بالله ما ترك عبدٌ لله شيئًا فوجد فقده.

* وقولهم: «من ترك لله شيئًا عوضه الله خيرًا منه» حق، والعوض أنواع مختلفة، وأجل ما يعوّض به: الأنس بالله، ومحبتّه، وطمأنينة القلب به، وقوته، ونشاطه، وفرحه، ورضاه عن ربه تعالى.

* أغبى الناس من ضلّ في آخر سفره وقد قارب المنزل.

* العقول المؤيدة بالتوفيق ترى أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الموافق للعقل والحكمة، والعقول المضروبة بالخذلان ترى المعارضة بين العقل والنقل وبين الحكمة والشرع.

* أقرب الوسائل إلى الله ملازمة السنة والوقوف معها في الظاهر والباطن، ودوام الافتقار إلى الله، وإرادة وجهه وحده بالأقوال والأفعال، وما وصل أحد إلى الله إلّا من هذه الثلاثة، وما انقطع عنه أحد إلّا بانقطاعه عنها أو عن أحدها.

[أسباب السعادة]

الأصول التي انبنى عليها سعادة العبد ثلاثة، ولكل واحد منها ضد، فمن فقد ذلك الأصل حصل على ضده:

* التوحيد وضده الشرك.

* السنة وضدها البدعة.

* والطاعة وضدها المعصية.

ولهذه الثلاثة ضد واحد وهو خلو القلب من الرغبة في الله وفيما عنده ومن الرهبة منه ومما عنده.

[سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين]

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، وقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ [النساء: ١١٥] الآية.

والله تعالى قد بين في كتابه سبيل المؤمنين مفصلةً، وسبيل المجرمين مفصلةً، وعاقبة هؤلاء مفصلةً، وعاقبة هؤلاء مفصلةً، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء وأولياء هؤلاء، وخذلانه هؤلاء وتوفيقه هؤلاء، والأسباب التي وفق بها هؤلاء، والأسباب التي خذل بها هؤلاء، وجللى سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما وبينهما غاية البيان حتى شاهدتهما البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

فمن لم يعرف سبيل المجرمين ولم تستبين له أو شك أن يظن في بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين، كما وقع في هذه الأمة من أمور كثيرة في باب

الاعتقاد والعلم والعمل هي من سبيل المجرمين والكفار وأعداء الرسل، أدخلها مَنْ لم يعرف أنها من سبيلهم في سبيل المؤمنين، ودعا إليها وكفر مَنْ خالفها، واستحلَّ منه ما حرَّمه الله ورسولُه؛ كما وقع لأكثر أهل البدع من الجهمية والقدرية والخوارج والروافض وأشباههم ممَّن ابتدَع بدعةً ودعا إليها وكفر مَنْ خالفها.

فصل: [أعظم الإضاعات]

عشرة أشياء ضائعة لا يُنتفع بها:

- ١- علمٌ لا يُعملُ به.
- ٢- وعملٌ لا إخلاصَ فيه ولا اقتداءً.
- ٣- ومالٌ لا يُنفقُ منه؛ فلا يستمتع به جامعُه في الدنيا ولا يقدمُه أمامَه إلى الآخرة.
- ٤- وقلبٌ فارغٌ من محبة الله والشوق إليه والأنس به.
- ٥- وبدنٌ معطلٌ من طاعته وخدمته.
- ٦- ومحبةٌ لا تتقيّد برضى المحبوب وامتثال أوامره.
- ٧- ووقتٌ معطلٌ عن استدراكِ فارطٍ أو اغتنامِ برٍّ وقُربةٍ.
- ٨- وفكرٌ يجولُ فيما لا ينفعُ.
- ٩- وخدمةٌ مَنْ لا تُقربُكَ خدمته إلى الله، ولا تعودُ عليك بصلاحِ دنيَاكَ.
- ١٠- وخوفُكَ ورجاؤُكَ لمن ناصيته بيد الله، وهو أسيرٌ في قبضته، ولا يملكُ لنفسه ضرراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

وأعظم هذه الإضاعاتِ إضاعتانِ هما أصلُ كلِّ إضاعةٍ:

• إضاعةُ القلبِ.

• وإضاعةُ الوقتِ.

فإضاعةُ القلبِ من إثارةِ الدنيا على الآخرةِ، وإضاعةُ الوقتِ من طولِ الأملِ، فاجتمعَ الفسادُ كُلُّهُ في اتباعِ الهوى وطولِ الأملِ، والصالحُ كُلُّهُ في اتباعِ الهدى والاستعدادِ لِلِقَاءِ، واللهُ المستعانُ.

فصل: [أحبُّ الخلقِ إلى الله]

للهُ سبحانه على عبده أمرٌ أمره به، وقضاءٌ يقضيه عليه، ونعمةٌ يُنعمُ بها عليه، فلا ينفكُ من هذه الثلاثةِ.

والقضاءُ نوعانِ:

• إمَّا مصائبُ.

• وإمَّا معائبُ.

وله عليه عبوديةٌ في هذه المراتبِ كُلِّها، فأحبُّ الخلقِ إليه مَنْ عرفَ عبودِيَّتَه في هذه المراتبِ ووفَّأها حقَّها، فهذا أقربُ الخلقِ إليه، وأبعدُهم منه مَنْ جهَلَ عبودِيَّتَه في هذه المراتبِ فعطَّلها علمًا وعملاً.

* فعبودِيَّتَه في الأمرِ: امتثالُه إخلاصًا واقتداءً برسولِ الله ﷺ، وفي النهيِ اجتنابُه خوفًا منه وإجلالًا ومحبةً.

* وعبودِيَّتُه في قضاءِ المصائبِ: الصبرُ عليها ثمَّ الرِّضا بها وهو أعلىُّ منه، ثمَّ الشُّكرُ عليها وهو أعلىُّ من الرِّضا.

* وعبودِيَّتُه في قضاءِ المعائبِ: المبادرةُ إلى التوبةِ منها والتنصُّلُ، والوقوفُ

في مقام الاعتذار والانكسار، عالمًا بأنه لا يرفعها عنه إلا هو، ولا يقيه شرَّها سواه، وأنها إن استمرت أبعدته من قربهِ وطرَدته من بابهِ، فيراها من الضَّر الذي لا يكشفُهُ غيرُهُ، حتَّى إِنَّه ليراهما أعظمَ من ضَرِّ البدنِ.

*** وأما عبوديَّةُ النِّعم:** فمعرَفَتُها والاعترافُ بها أوَّلًا، ثم العيادُ به أن يقعَ في قلبه نسبَتُها وإضافَتُها إلى سواه، وإن كان سببًا من الأسبابِ فهو مُسبِّبُهُ ومقيمُهُ؛ فالنِّعمةُ منه وحده بكلِّ وجهٍ واعتبارٍ، ثمَّ الشَّناءُ بها عليه ومحَبَّتُهُ عليها، وشكرُهُ بأنَّ يستعملُها في طاعته.

ومن لطائفِ التَّعبُدِ بالنِّعم أن يستكثرَ قليلُها عليه، ويستقلَّ كثيرَ شكره عليها، ويعلمَ أنَّها وصلت إليه من سيِّده من غيرِ ثمنٍ بذلَهُ فيها، ولا وسيلةٍ منه توَسَّلَ بها إليه، ولا استحقاقٍ منه لها، وأنها لله في الحقيقة لا للعبدِ، فلا تزيدُهُ النِّعمُ إلاَّ انكسارًا وذُلًّا وتواضعًا ومحَبَّةً للمنعِمِ، وكلِّما جدَّدَ له نعمةٌ أحدثَ لها عبوديَّةً ومحَبَّةً وخضوعًا وذُلًّا، وكلِّما أحدثَ له قَبْضًا أحدثَ له رِضا، وكلِّما أحدثَ ذنبًا أحدثَ له توبةً وانكسارًا واعتذارًا، فهذا هو العبدُ الكَيِّسُ، والعاجزُ بمعزلٍ عن ذلك، وبالله التوفيقُ.

نصيحة: [أقرب الطرق إلى الجنة]

هَلُمَّ إِلَى الدُّخُولِ عَلَى اللَّهِ وَمَجَاوِرَتِهِ فِي دَارِ السَّلَامِ، بِلَا نَصَبٍ وَلَا تَعَبٍ وَلَا عَنَاءٍ، بَلْ مِنْ أَقْرَبِ الطُّرُقِ وَأَسْهَلِهَا، وَذَلِكَ أَنَّكَ فِي وَقْتٍ بَيْنَ وَقَتَيْنِ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عَمْرُكَ، وَهُوَ وَقْتُكَ الْحَاضِرُ بَيْنَ مَا مَضَى وَمَا يُسْتَقْبَلُ، فَالَّذِي مَضَى تُصْلِحُهُ بِالتَّوْبَةِ وَالنَّدَمِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَذَلِكَ شَيْءٌ لَا تَعَبَ عَلَيْكَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ، وَلَا مَعَانَاةَ عَمَلٍ شَاقٍّ، إِنَّمَا هُوَ عَمَلُ قَلْبٍ، وَتَمَنُّعٌ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَامْتِنَاعُ تَرْكِ وَرَاحَةٍ، لَيْسَ هُوَ عَمَلًا بِالْجَوَارِحِ يَشُقُّ عَلَيْكَ مَعَانَاةً، وَإِنَّمَا هُوَ عَزْمٌ وَنِيَّةٌ جَازِمَةٌ تَرِيحُ بَدَنَكَ وَقَلْبَكَ وَسَرَكَ، فَمَا مَضَى تُصْلِحُهُ بِالتَّوْبَةِ، وَمَا يُسْتَقْبَلُ تُصْلِحُهُ بِالْامْتِنَاعِ

والعزم والنية، وليس للجوارح في هذين نصب ولا تعب، ولكن الشأن في عمرك، وهو وقتك الذي بين الوقتين، فإن أضعته أضعت سعادتك ونجاتك، وإن حفظته - مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذكر - نجوت وفزت بالراحة واللذة والنعيم.

وحفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده؛ فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وأنفع لها وأعظم تحصيلاً لسعادتها، وفي هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت، فهي والله آياتك الحالية التي تجمع فيها الزاد لمعادك، إما إلى الجنة وإما إلى النار، فإن اتخذت منها سبيلاً إلى ربك بلغت السعادة العظمى والفوز الأكبر في هذه المدة اليسيرة التي لا نسبة لها إلى الأبد، وإن أثرت الشهوات والراحات واللهو واللعب؛ انقضت عنك بسرعة، وأعقبك الألم العظيم الدائم الذي مقاساته ومعاناته أشق وأصعب وأدوم، من معاناة الصبر عن محارم الله، والصبر على طاعته ومخالفته الهوى لأجله.

فصل: [كن مع الله]

إذا استغنى الناس بالدنيا فاستغن أنت بالله، وإذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بالله، وإذا أنسوا بأحبابهم فاجعل أنسك بالله، وإذا تعرّفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقرّبوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة فتعرّف أنت إلى الله، وتودّد إليه تنل بذلك غاية العز والرفعة.

فصل: [أقسام الزهد]

الزهد أقسام:

* زهد في الحرام وهو فرض عين.

* وزهد في الشُّبُهَات وهو بحسب مراتب الشبهة، فإن قويت التحقت بالواجب، وإن ضعفت كان مستحباً.

* وزهدٌ في الفضولِ.

* وزهدٌ فيما لا يعني من الكلام والنظر والسؤال واللقاء وغيره.

* وزهدٌ في الناسِ.

* وزهدٌ في النفسِ؛ بحيث تهونُ عليه نفسه في الله.

* وزهدٌ جامعٌ لذلك كله وهو الزُّهدُ فيما سوى الله، وفي كلِّ ما شَغَلَكَ عنه.

وأفضلُ الزُّهدِ: إخفاءُ الزُّهدِ.

وأصعبُهُ: الزُّهدُ في الحظوظِ.

والفرقُ بينَهُ وبينَ الورعِ: أنَّ الزُّهدَ تركُ ما لا ينفعُ في الآخرة، والورعَ تركُ ما يُخشى ضرره في الآخرة، والقلبُ المعلقُ بالشهواتِ لا يصحُّ له زهدٌ ولا ورعٌ.

فائدةٌ جليلةٌ: [ترك الأمرِ أعظم عند الله من ارتكابِ النهي]

قال سهلُ بنُ عبد الله: تركُ الأمرِ عندَ الله أعظمُ من ارتكابِ النهي؛ لأنَّ آدمَ نُهي عن أكلِ الشَّجرةِ فأكلَ منها؛ فتابَ عليه، وإبليسَ أمرَ أنْ يسجُدَ لآدمَ فلم يسجدْ؛ فلم يَتَّبَ عليه.

قلتُ: هذه مسألةٌ عظيمةٌ لها شأنٌ، وهي أنَّ تركَ الأوامرِ أعظمُ عندَ الله من ارتكابِ المناهي، وذلك من وجوهٍ عديدةٍ:

* أحدها: ما ذكره سهلٌ من شأنِ آدمَ وعدوِّ الله إبليسَ.

* الثاني: أنَّ ذنبَ ارتكابِ النهي مَصْدَرُهُ في الغالبِ الشَّهوةُ والحاجةُ، وذنبُ تركِ الأمرِ مَصْدَرُهُ في الغالبِ الكِبَرُ والعِزَّةُ، «ولا يدخلُ الجَنَّةَ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ

ذَرَّةً مِنْ كَبِيرٍ»^(١)، ويدخلها مَنْ مَاتَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَإِنْ زَنَى وَسَرَقَ^(٢).

*** الثالث:** أَنْ فَعَلَ الْمَأْمُورِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ تَرَكَ الْمَنْهِيٍّ؛ كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ النُّصُوصُ:

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ الصَّلَاةُ عَلَى وَفَّيْهَا»^(٣).

*** الوجه الرابع:** أَنْ فَعَلَ الْمَأْمُورِ مَقْصُودٌ لِدَاتِهِ، وَتَرَكَ الْمَنْهِيٍّ مَقْصُودٌ لِتَكْمِيلِ فِعْلِ الْمَأْمُورِ؛ فَهُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ لِأَجْلِ كَوْنِهِ يُخِلُّ بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ أَوْ يُضَعِّفُهُ وَيُنْقِصُهُ؛ كَمَا نَبَّهَ سَبْحَانَهُ عَلَى ذَلِكَ فِي النَّهْيِ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ؛ بِكَوْنِهِمَا يَصُدَّانِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ؛ فَالْمَنْهِيَّاتُ قَوَاطِعُ وَمَوَانِعُ صَادَّةٌ عَنْ فِعْلِ الْمَأْمُورَاتِ أَوْ عَنْ كَمَالِهَا؛ فَالْنَّهْيُ عَنْهَا مِنْ بَابِ الْمَقْصُودِ لِغَيْرِهِ، وَالْأَمْرُ بِالْوَاجِبَاتِ مِنْ بَابِ الْمَقْصُودِ لِنَفْسِهِ.

*** الوجه الخامس:** أَنْ فَعَلَ الْمَأْمُورَاتِ مِنْ بَابِ حِفْظِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ وَبِقَائِهَا، وَتَرَكَ الْمَنْهِيَّاتِ مِنْ بَابِ الْحِمِيَّةِ عَمَّا يُشَوِّشُ قُوَّةَ الْإِيمَانِ وَيُخْرِجُهَا عَنِ الْإِعْتِدَالِ، وَحِفْظُ الْقُوَّةِ مُقَدَّمٌ عَلَى الْحِمِيَّةِ؛ فَإِنَّ الْقُوَّةَ كُلَّمَا قَوِيَتْ دَفَعَتْ الْمَوَادَّ الْفَاسِدَةَ، وَإِذَا ضَعُفَتْ غَلَبَتْ الْمَوَادُّ الْفَاسِدَةُ؛ فَالْحِمِيَّةُ مُرَادَّةٌ لِغَيْرِهَا، وَهُوَ حِفْظُ الْقُوَّةِ وَزِيَادَتُهَا وَبِقَاؤُهَا، وَلِهَذَا كُلَّمَا قَوِيَتْ قُوَّةُ الْإِيمَانِ دَفَعَتْ الْمَوَادَّ الرَّدِيئَةَ، وَمَنْعَتْ مِنْ غَلَبَتِهَا وَكَثَرَتِهَا بِحَسَبِ الْقُوَّةِ وَضَعْفِهَا، وَإِذَا ضَعُفَتْ غَلَبَتْ الْمَوَادُّ الْفَاسِدَةُ.

*** الوجه السادس:** أَنْ فَعَلَ الْمَأْمُورَاتِ حَيَاةُ الْقَلْبِ وَغِذَاؤُهُ وَزِينَتُهُ وَسُرُورُهُ وَقُرَّةُ عَيْنِهِ وَلَذَنُهُ وَنَعِيمُهُ، وَتَرَكَ الْمَنْهِيَّاتِ بَدُونِ ذَلِكَ؛ لَا يُحْصَلُ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ لَوْ تَرَكَ جَمِيعَ الْمَنْهِيَّاتِ، وَلَمْ يَأْتِ بِالْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الْمَأْمُورِ بِهَا لَمْ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ التَّرَكُّ شَيْئًا، وَكَانَ خَالِدًا مَخْلَدًا فِي النَّارِ.

(١) مسلم (٩١).

(٢) البخاري (١٢٣٧)، ومسلم (٩٤).

(٣) البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

*** الوجه السابع:** أَنَّ مَنْ فَعَلَ الْمَأْمُورَاتِ وَالْمَنْهَيَّاتِ؛ فَهُوَ: إِمَّا نَاجٌ إِنْ غَلِبَتْ حَسَنَاتُهُ سَيِّئَاتِهِ، وَإِمَّا نَاجٌ بَعْدَ أَنْ يُؤْخَذَ مِنْهُ الْحَقُّ وَيُعَاقَبَ عَلَى سَيِّئَاتِهِ؛ فَمَأْلُهُ إِلَى النَّجَاةِ، وَذَلِكَ بِفَعْلِ الْمَأْمُورِ، وَمَنْ تَرَكَ الْمَأْمُورَاتِ وَالْمَنْهَيَّاتِ فَهُوَ هَالِكٌ غَيْرُ نَاجٍ، وَلَا يَنْجُو إِلَّا بِفَعْلِ الْمَأْمُورِ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ.

*** الوجه الثامن:** أَنَّ امْتِثَالَ الْأَمْرِ عِبُودِيَّةٌ وَتَقَرُّبٌ وَخِدْمَةٌ، وَتِلْكَ الْعِبَادَةُ الَّتِي خُلِقَ لِأَجْلِهَا الْخَلْقُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) [الذاريات: ٥٦]، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ إِنَّمَا خَلَقَهُمْ لِلْعِبَادَةِ، وَكَذَلِكَ إِنَّمَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رِسْلَهُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ لِيَعْبُدُوهُ؛ فَالْعِبَادَةُ هِيَ الْغَايَةُ الَّتِي خُلِقُوا لَهَا، وَلَمْ يُخْلَقُوا لِمَجَرَّدِ التَّرْكِ؛ فَإِنَّهُ أَمْرٌ عَدْمِيٌّ لَا كِمَالٍ فِيهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ عَدَمٌ؛ بِخِلَافِ امْتِثَالِ الْمَأْمُورِ؛ فَإِنَّهُ أَمْرٌ وَجُودِيٌّ مَطْلُوبُ الْحَصُولِ.

فصل: [بين الذكر والشكر]

مَبْنَى الدِّينِ عَلَى قَاعِدَتَيْنِ:

*** الذكر.**

*** والشُّكْر.**

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمَعَاذٍ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، فَلَا تَنْسَ أَنْ تَقُولَ ذُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(١).

وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالذِّكْرِ مَجَرَّدَ ذِكْرِ اللِّسَانِ، بَلِ الذِّكْرُ الْقَلْبِيُّ وَاللِّسَانِيُّ، وَذِكْرُهُ يَتَضَمَّنُ ذِكْرَ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَذِكْرَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَذِكْرَهُ بِكَلَامِهِ، وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ

(١) أَبُو دَاوُدَ (١٥٢٢)، وَالنَّسَائِيُّ (١٣٠٢).

معرفته والإيمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله، والثناء عليه بأنواع المدح، وذلك لا يتم إلا بتوحيده، فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه.

وأما الشكر فهو القيام له بطاعته والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهراً وباطناً.

وهذان الأمران هما جماع الدين، فذكره مستلزم لمعرفة، وشكره متضمن لطاعته، وهذان هما الغاية التي خلق لأجلها الجن والإنس والسموات والأرض، ووضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل، وهي الحق الذي به خلقت السموات والأرض وما بينهما، وضدها هو الباطل والعبث الذي يتعالى ويتقدس عنه.

فصل: [سبب الهداية والضلال]

تكرر في القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والإضلال، فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدى اقتضاء السبب لمسببه والمؤثر لأثره، وكذلك الضلال؛ فأعمال البر تثمر الهدى، وكلما ازداد منها ازداد هدى، وأعمال الفجور بالضد، وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر فيجازي عليها بالهدى والفلاح، ويبغض أعمال الفجور ويجازي عليها بالضلال والشقاء، أيضاً فإنه البر يحب أهل البر، فيقرب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البر، ويبغض الفجور وأهله فيبعد قلوبهم منه بحسب ما اتصفوا به من الفجور:

* فمن الأصل الأول: قوله تعالى: ﴿آلَهُ ۥ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

[البقرة: ١-٢].

* وأما الأصل الثاني: وهو اقتضاء الفجور والكبر والكذب للضلال، فكثير

أيضاً في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ

إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

فصل: [إياك والكذب!]

إِيَّاكَ والكذب فإنه يُفْسِدُ عليك تصوّر المعلومات على ما هي عليه، ويُفْسِدُ عليك تصويرها وتعليمها للناس، فإن الكاذب يصوّر المعدوم موجوداً، والموجود معدوماً، والحق باطلاً، والباطل حقاً، والخير شراً، والشرّ خيراً، فيُفْسِدُ عليه تصوّره وعلمه عقوبةً له.

ولهذا كان الكذب أساسَ الفجور؛ كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجور يهدي إلى النار»^(١).

وأوّل ما يسري الكذب من النَّفْسِ إلى اللسان فيُفْسِدُهُ، ثمَّ يسري إلى الجوارح فيُفْسِدُ عليها أعمالها كما أفسد على اللسان أقواله، فيعمُّ الكذب أقواله وأعماله وأحواله، فيستحكم عليه الفساد، ويراى دأؤه إلى الهلكة؛ إن لم يتداركه الله بدواء الصدق يَقْلَعُ تلك المادة من أصلها.

ولهذا كان أصل أعمال القلوب كلّها الصدق، وأضدادها من الرياء والعجب والكبر والفخر، والخيلاء والبطر والأشر، والعجز والكسل، والجبن والمهانة، وغيرها؛ أصلها الكذب، فكلُّ عمل صالح ظاهرٍ أو باطنٍ فمَنْشُؤُهُ الصدق، وكلُّ عمل فاسدٍ ظاهرٍ أو باطنٍ فمَنْشُؤُهُ الكذب، والله تعالى يعاقب الكذاب بأن يُعْجِدَهُ وَيُثَبِّطَهُ عن مصالحه ومنافعه، ويثيب الصادق بأن يوفِّقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته، فما استَجَلِبَتْ مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق، ولا مفاستهما

(١) البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

ومضارهما بمثل الكذب؛ قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ نَبْعُ الصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]، وقال: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٠].

فصل: في قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

في هذه الآية عدَّةٌ حِكَمٍ وأسرارٍ ومصالحٍ للعبد؛ فإنَّ العبدَ إذا علم أنَّ المكروهَ قد يأتي بالمحبوبِ، والمحبوبُ قد يأتي بالمكروهِ، لم يأمنْ أنْ توافيه المضرَّةُ من جانبِ المسرَّةِ، ولم ييأسْ أنْ تأتيه المسرَّةُ من جانبِ المضرَّةِ لعدمِ علمه بالعواقبِ، فإنَّ الله يعلمُ منها ما لا يعلمه العبدُ، وأوجبَ له ذلك أمورًا:

- منها: أنه لا أنفعَ له من امتثالِ الأمرِ، وإن شقَّ عليه في الابتداء؛ لأنَّ عواقبه كلُّها خيراتٌ ومسرَّاتٌ ولذاتٌ وأفراحٌ، وإن كرهته نفسه فهو خيرٌ لها وأنفعُ، وكذلك لا شيءٌ أضرُّ عليه من ارتكابِ النهي، وإنْ هَوَيْتُهُ نفسه ومالتْ إليه، فإنَّ عواقبه كلُّها آلامٌ وأحزانٌ وشُرورٌ ومصائبٌ، وخاصَّةُ العقلِ تحمُّلُ الألمِ اليسيرِ لما يُعقِّبه من اللذةِ العظيمةِ والخيرِ الكثيرِ، واجتنابُ اللذةِ اليسيرةِ لما يُعقِّبها من الألمِ العظيمِ والشرِّ الطويلِ.

- ومن أسرارِ هذه الآية: أنها تقتضي من العبدِ التفويضَ إلى مَنْ يعلمُ عواقبَ الأمورِ، والرِّضا بما يختارُهُ له ويقضيه له لما يرجو فيه من حُسنِ العاقبةِ.

- ومنها: أنه لا يقترحُ على ربِّه، ولا يختارُ عليه ولا يسأله ما ليسَ له به علمٌ،

فلعلَّ مضرتَه وهلاكَه فيه وهو لا يعلمُ، فلا يختارُ على ربِّه شيئاً، بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يُرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

• ومنها: أنه إذا فوّض إلى ربِّه، ورضي بما يختاره له؛ أمدّه فيما يختاره له بالقوّة عليه والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عُرْضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حُسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه، بما يختاره هو لنفسه.

• ومنها: أنه يُريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرّغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعدُ منها في عقبة وينزل في أخرى، ومع هذا فلا خروج له عمّا قدّر عليه، فلو رَضِيَ باختيار الله أصابه القدر وهو محمودٌ مشكورٌ ملطوفٌ به فيه، وإلا جرى عليه القدر وهو مذمومٌ غير ملطوفٍ به فيه؛ لأنه مع اختياره لنفسه، ومتى صحّ تفويضه ورضاه، اكتنفه في المقدور العطف عليه، واللطف به، فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدّره.

إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيُّله في ردّه، فلا أنفع له من الاستسلام، وإلقاء نفسه بين يدي القدر طريقاً كالهيئة، فإن السَّبْع لا يرضى بأكل الجيف.

فصل : [لا ينتفع بالإيمان والعلم إلا من عرف ربه ووقف على قدر نفسه]

لا ينتفع بنعمة الله بالإيمان والعلم إلا من عرف نفسه، ووقف بها عند قدرها، ولم يتجاوزهُ إلى ما ليس له، ولم يتعدَّ طوره، ولم يقل: هذا لي، وتيقن أنه لله ومن الله وبالله؛ فهو المانُّ به ابتداءً وإدامةً بلا سبب من العبد، ولا استحقاق منه، فتدلُّه نعمُ الله عليه، وتكسِّره كسيرة من لا يرى لنفسه ولا فيها

خيرًا البتة، وأنَّ الخيرَ الذي وصلَ إليه فهو اللهُ، وبه ومنه، فتُحَدِّثُ له النعمُ ذُلًّا وانكسارًا عجيبًا لا يُعْبَرُ عنه؛ فكلما جِدَّدَ له نعمةً ازدادَ له ذُلًّا وانكسارًا وخشوعًا، ومحبةً وخوفًا ورجاءً.

وهذا نتيجةُ عِلْمَيْنِ شريفيْن:

* **عِلْمُهُ بِرَبِّهِ:** وكمالِه، وبرِّه، وغناه، وجُودِه، وإحسانِه، ورحمته، وأنَّ الخيرَ كُلُّه في يَدَيْهِ، وهو مِلْكُهُ؛ يُؤْتِي منه مَنْ يَشَاءُ، ويمْنَعُ منه مَنْ يَشَاءُ، وله الحمدُ على هذا، وهذا أكملُ حَمْدٍ وأتمُّه.

* **وعِلْمُهُ بِنَفْسِهِ:** ووقوفه على حدِّها، وقدرِها، ونقصِها، وظلمِها، وجَهْلِها، وأنَّها لا خيرَ فيها البتَّة، ولا لها ولا بها ولا منها، وأنَّها ليس لها من ذاتِها إلا العدمُ؛ فكَذلك من صفاتِها، وكمالِها ليس لها إلا العدمُ، الذي لا شيءَ أَحقرُّ منه ولا أنقصُ؛ فما فيها من الخيرِ تابعٌ لوجودِها، الذي ليس إليها ولا بها.

فإذا صار هذانِ العِلْمَانِ صبغةً لها لا صبغةً على لسانِها؛ عَلِمَتْ حينئذٍ أنَّ الحمدَ كُلَّهُ لله، والأمرَ كُلَّهُ له، والخيرَ كُلَّهُ في يَدَيْهِ، وأنه هو المستحقُّ للحمْدِ والشَّانِ والمدحِ دونِها، وأنَّها هي أولى بالذِّمِّ والعيبِ واللومِ، ومَنْ فاتَه التحقيقُ بهذينِ العِلْمَيْنِ تَلَوَّنَتْ به أقوالُه وأعمالُه وأحوالُه، وتَخَبَّطَ عليه، ولم يَهْتِدِ إلى الصراطِ المستقيمِ الموصِلِ له إلى الله. فإيصالُ العبدِ بتحقيقِ هاتينِ المعرفتَيْنِ عِلْمًا وحالًا، وانقطاعُهُ بفواتِهما.

وهذا معنى قولِهِمْ: مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ؛ فإنه مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بالجهلِ والظُّلْمِ والعيبِ والنقائصِ والحاجةِ والفقرِ والذُّلِّ والمسكِنَةِ والعَدَمِ = عَرَفَ رَبَّهُ بضدِّ ذلك، فوقفَ بِنَفْسِهِ عندَ قدرِها، ولم يَتَعَدَّ بها طَوْرَها، وأثنى على رَبِّهِ ببعضِ ما هو أَهْلُهُ، وانصَرَفَتْ قوَّةُ حُبِّهِ وخَشْيَتِهِ ورجائِهِ وإِنابَتِهِ وتوَكُّلِهِ إليه وحده، وكانَ

أحبَّ شيءٍ إليه وأخوفَ شيءٍ عنده وأرجاه له، وهذا هو حقيقة العبودية. والله المستعان.

ويُحكى أن بعض الحكماء كتب على باب بيته: إنه لن ينتفع بحكمتنا إلا من عرَفَ نفسه، ووقفَ بها عند قدرها؛ فمن كان كذلك فلْيَدْخُلْ، وإلا فلْيَرْجَعْ حتى يكونَ بهذه الصفة.

فصل: [مضارُّ الشهوات]

الصبرُ على الشهوة أسهلُّ من الصبرِ على ما تُوجِبُهُ الشهوة، فإنَّها إمَّا أن تُوجِبَ ألماً وعقوبةً، وإمَّا أن تقطَعَ لذَّةً أكملَ منها، وإمَّا أن تُضيعَ وقتاً إضاعتهُ حسرةٌ وندامةٌ، وإمَّا أن تُثَلِّمَ^(١) عِرضاً توفيرُهُ أنفعُ للعبدِ من ثلِّمِهِ، وإمَّا أن تُذهِبَ ما لا بقاءَ له من ذهابِهِ، وإمَّا أن تضعَ قدراً وجاهاً قيامُهُ خيرٌ من وضعِهِ، وإمَّا أن تسلبَ نعمةً بقاءُها ألدُّ وأطيبُ من قضاءِ الشهوة، وإمَّا أن تُطرِّقَ لوضعِ إليك طريقاً لم يكنْ يجدها قبلَ ذلك، وإمَّا أن تجلبَ همًّا وغماً وحزناً وخوفاً لا يقاربُ لذَّةَ الشهوة، وإمَّا أن تُنسيَ علماً ذكرُهُ ألدُّ من نيلِ الشهوة، وإمَّا أن تُشَمَّتَ عدواً وتُحزِنَ ولياً، وإمَّا أن تقطَعَ الطريقَ على نعمةٍ مقبلةٍ، وإمَّا أن تُحدِثَ عيباً يبقى صفةً لا تزولُ، فإنَّ الأعمالَ تُورِّثُ الصفاتِ والأخلاقَ.

فصل: [حدود الأخلاق]

للأخلاقِ حدٌّ متى جاوزته صارت عدواناً، ومتى قصَّرت عنه كان نقصاً ومهانةً:

- فللغضبِ حدٌّ، وهو الشجاعةُ المحمودَةُ والأنفةُ من الرذائلِ والنقائصِ، وهذا كمالُهُ، فإذا جاوزَ حدَّهُ تعدَّى صاحبه وجاراً، وإنْ نقصَ عنه جبنٌ ولم يأنفِ من الرذائلِ.

(١) الثلم: الكسر والخلل في الشيء، والمراد هنا: شانه وعابه وقدح فيه.

• وللحرص حدٌّ، وهو الكفايةُ في أمورِ الدُّنيا وحصولُ البلاغِ منها، فمتى نقصَ من ذلكَ كانَ مهانةً وإضاعةً، ومتى زادَ عليه كانَ شرًّا ورغبةً فيما لا تُحمدُ الرَّغبةُ فيه.

• وللحسدِ حدٌّ، وهو المنافسةُ في طلبِ الكمالِ، والآنفةُ أنْ يتقدَّمَ عليه نظيره، فمتى تعدَّى ذلكَ صارَ بغياً وظلمًا يتمنى معه زوالَ النعمةِ عن المحسودِ ويحرصُ على إيذائه، ومتى نقصَ عن ذلكَ كانَ دناءةً وضعفَ همَّةٍ وصغرَ نفسٍ، قالَ النبي ﷺ: «لا حسدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاهُ اللهُ مالًا فسَلَّطَه على هلكتهِ في الحقِّ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ الحكمةَ فهو يقضي بها ويُعلِّمُها النَّاسَ»^(١) فهذا حسدٌ منافسةٌ يُطالبُ الحاسدُ به نفسه أنْ يكونَ مثلَ المحسودِ، لا حسدَ مهانةٍ يتمنى به زوالَ النعمةِ عن المحسودِ.

• وللشهوةِ حدٌّ، وهو راحةُ القلبِ والعقلِ من كدِّ الطاعةِ واكتسابِ الفضائلِ، والاستعانةُ بقضائِها على ذلكَ، فمتى زادتْ على ذلكَ صارتْ نَهْمَةً وشَبَقًا^(٢)، والتحقَّ صاحبُها بدرجةِ الحيواناتِ، ومتى نَقَصَتْ عنه ولم يكنْ فراغًا في طلبِ الكمالِ والفضلِ كانتْ ضعفًا وعجزًا ومهانةً.

• وللراحةِ حدٌّ، وهو إجمامُ النفسِ والقوى المدركةِ والفعالةِ للاستعدادِ للطاعةِ واكتسابِ الفضائلِ، وتوفُّرها على ذلكَ بحيث لا يُضعِفُها الكدُّ والتعبُ ويُضعِفُ أثرها، فمتى زادَ على ذلكَ صارَ توانيًّا وكسلًا وإضاعةً، وفاتَ به أكثرُ مصالحِ العبدِ، ومتى نقصَ عنه صارَ مُضِرًّا بالقوى، مُوهِنًا لها، وربما انقطعَ به كالمُنبتِّ الذي لا أرضًا قطعَ ولا ظهرًا أبقى.

• والجودُ له حدٌّ بينَ طرفين، فمتى جاوزَ حدَّهُ صارَ إسرافًا وتبذيرًا، ومتى

(١) البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦).

(٢) الشبق: شدة الغلظة وطلب النكاح.

نقص عنه كان بخلاً وتقتيراً.

• وللشجاعة حدٌّ إذا جاوزته صارت تهوُّراً، ومتى نقصت عنه صارت جُبناً وخَوَراً، وحدُّها الإقدام في مواضع الإقدام، والإحجام في مواضع الإحجام، كما قال معاوية لعمر بن العاص: أعياني أن أعرف أشجاعاً أنت أم جبانٌ؟ تُقدِّم حتَّى أقول من أشجع الناس، وتجبُّن حتَّى أقول من أجبن الناس، فقال: شجاعٌ إذا أمكنتني فرصةً * * * فإن لم تكن لي فرصةٌ فجبانٌ

• والغيرة لها حدٌّ إذا جاوزته صارت تهمةً وظناً سيئاً بالبريء، وإن قصرت عنه كانت تغافلاً ومبادئ دياثة.

• وللتواضع حدٌّ إذا جاوزه كان ذُلًّا ومهانةً، ومن قصّر عنه انحرف إلى الكبر والفخر.

• وللعزَّ حدٌّ إذا جاوزه كان كِبَرًا وخُلُقًا مذموماً، وإن قصّر عنه انحرف إلى الذلِّ والمهانة.

وضابطُ هذا كله: العدل، وهو الأخذ بالوسطِ الموضوع بين طرفي الإفراط والتفريط، وعليه بناءُ مصالح الدنيا والآخرة، بل لا تقومُ مصلحةُ البدن إلا به، فإنه متى خرج بعضُ أخلاطه عن العدلِ وجاوزه أو نقص عنه ذهبَ من صحَّته وقُوَّته بحسب ذلك.

وكذلك الأفعال الطبيعية كالنوم، والسَّهر، والأكل، والشرب، والجماع، والحركة، والرياضة، والخلوة، والمخالطة، وغير ذلك، إذا كانت وسطاً بين الطرفين المذمومين كانت عدلاً، وإن انحرفت إلى أحدهما كانت نقصاً وأثمرت نقصاً.

فصل: [أصل الأخلاق المذمومة والمحمودة]

* أصل الأخلاق المذمومة كلها: الكبر والمهانة والدناءة.

* وأصل الأخلاق المحمودة كلها الخشوعُ وعُلُوُّ الهمة.

• فالفخر، والبطر، والأشر، والعجب، والحسد، والبغي، والخيلاء، والظلم، والقسوة، والتجبر، والإعراض، وإباء قبول النصيحة، والاستثثار، وطلب العلو، وحب الجاه والرئاسة، وأن يُحمد بما لم يفعل، وأمثال ذلك، كلها ناشئة من الكبر.

• وأما الكذب، والخسة، والخيانة، والرياء، والمكر والخديعة، والطمع، والفزع، والجبن، والبخل، والعجز، والكسل، والذل لغير الله، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، ونحو ذلك، فكلها من المهانة والدناءة وصغر النفس.

• وأما الأخلاق الفاضلة كالصبر، والشجاعة، والعدل، والمروعة، والعفة، والصيانة، والجود، والحلم، والعفو، والصفح، والاحتمال، والإيثار، وعزة النفس عن الدنات، والتواضع، والقناعة، والصدق، والإخلاص، والمكافأة على الإحسان بمثله، أو أفضل، والتغافل عن زلات الناس، وترك الاشتغال بما لا يعنيه، وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك، فكلها ناشئة عن الخشوع وعُلُوُّ الهمة، والله سبحانه أخبر عن الأرض بأنها تكون خاشعة، ثم يُنزل عليها الماء فتھتز وتربو وتأخذ زينتها وبهجتها، فكَذلك المخلوق منها إذا أصابه حظُّه من التوفيق.

وأما النار: فطبعتها العلو والإفساد، ثم تخمد فتصير أحقر شيء وأذله، وكذلك المخلوق منها؛ فهي دائماً بين العلو إذا هاجت واضطربت، وبين الخسة والدناءة إذا خمدت وسكنت، والأخلاق المذمومة تابعة للنار والمخلوق منها، والأخلاق الفاضلة تابعة للأرض والمخلوق منها، فمن علت همته وخشعت نفسه اتصف بكل خلق جميل، ومن دنت همته وطغت نفسه اتصف بكل خلق رذيل.

فصل : [المطلب الأعلى موقوف حصوله على همة عالية ونية صحيحة]

فمن فَقَدَهُمَا تَعَذَّرَ عليه الوصولُ إليه.

فإنَّ الهَمَّةَ إذا كانت عاليةً تَعَلَّقَتْ به وحده دون غيره، وإذا كانت النيةُ صحيحةً سلكَ العبدُ الطريقَ الموصِلَةَ إليه؛ فالتَّيَّةُ تُفَرِّدُ له الطَّرِيقَ، والهمةُ تُفَرِّدُ له المطلوبَ؛ فإذا توَحَّدَ مطلوبُهُ والطريقُ الموصِلَةُ إليه كان الوصولُ غايته.

وإذا كانت همَّته سافلةً تَعَلَّقَتْ بالسُّفلياتِ ولم تتعلَّقْ بالمطلبِ الأعلى، وإذا كانت النيةُ غيرَ صحيحةٍ كانت طريقُهُ غيرَ موصلةٍ إليه.

فمدارُ الشأنِ على همةِ العبدِ ونيَّته، وهما مطلوبُهُ وطريقُهُ، ولا يَتِمُّ له إلا بتركِ ثلاثةِ أشياء:

✽ العوائِدُ والرسومُ والأوضاعُ التي أَحَدَّثَهَا النَّاسُ.

✽ الثاني: هجرُ العوائِقِ التي تَعُوقُهُ عن إفراذِ مطلوبِهِ وطريقِهِ وقطعِها.

✽ الثالث: قطعُ علائِقِ القلبِ التي تَحُولُ بينه وبين تجريدِ التعلُّقِ بالمطلوبِ. والفرقُ بينهما أنَّ العوائِقَ هي الحوادثُ الخارجيةُ، والعلائِقُ هي التعلُّقاتُ القلبيةُ بالمباحاتِ ونحوها.

وأصلُ ذلك تَرْكُ الفُضُولِ التي تَشْغُلُ عن المقصودِ من الطَّعامِ والشَّرابِ والمنامِ والخُلْطَةِ؛ فيأخذُ من ذلك ما يُعِينُهُ على طلبِهِ، ويرفضُ منه ما يَقْطَعُهُ عنه أو يُضَعِفُ طلبَهُ، واللهُ المستعانُ.

فصل : [دواعي الإخلاص]

لا يجتمعُ الإخلاصُ في القلبِ ومحبَّةُ المدحِ والثناءِ، والطَّمَعُ فيما عندَ الناسِ؛ إلا كما يجتمعُ الماءُ والنارُ، والضُّبُّ والحوتُ، فإذا حَدَّثَتْكَ نَفْسُكَ بطلبِ

الإخلاص فأقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع، والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يسهل عليّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟ قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك أنك ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه، لا يملكها غيره، ولا يؤتي العبد منها شيئاً سواه.

وأما الزهد في الثناء والمدح؛ فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين، ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ: «إن مدحي زين وذمي شين»، فقال: ذلك الله عز وجل^(١)، فازهد في مدح من لا يزينك مدحه وفي ذم من لا يشينك ذمه، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه، وكل الشين في ذمه، ولن تقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين، فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب. قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

فصل: [أكمل الناس لذّة]

لذّة كل أحد على حسب قدره وهمته وشرف نفسه، فأشرف الناس نفساً وأعلاهم همّة وأرفعهم قدراً من لذته في معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه والتودّد إليه بما يحبه ويرضاه، فلذّته في إقباله عليه وعكوف همته عليه.

ودون ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله، حتى تنتهي إلى من لذّته في أحسن الأشياء من القاذورات والفواحش في كل شيء من الكلام والفعال والأشغال، فلو

(١) الترمذي (٣٢٦٧)، وأحمد (٦٦٠٧/١٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٥١٥).

عُرِضَ عليه ما يلتذُّ به الأوَّلُ لم تسمعْ نفسه بقبوله ولا الالتفاتِ إليه، وربَّما تألَّمتْ من ذلك، كما أنَّ الأوَّلَ إذا عُرِضَ عليه ما يلتذُّ به هذا لم تسمعْ نفسه به، ولم تلتفتْ إليه، ونفرتْ نفسه منه.

وأكملُ النَّاسِ لَذَّةً من جُمع له بين لذة القلبِ والرُّوحِ ولذَّةِ البدنِ، فهو يتناولُ لذَّاته المباحَّةَ على وجهٍ لا ينقُصُ حظَّه من الدارِ الآخرة، ولا يقطعُ عليه لَذَّةَ المعرفة والمحبة والأنسِ برَبِّه، فهذا ممن قال تعالى فيه: ﴿هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وأبخسُهم حظًّا من اللذَّةِ مَنْ تناولها على وجهٍ يحوُلُ بينه وبين لذَّاتِ الآخرة، فيكونُ ممن يقالُ لهم يومَ استيفاءِ اللذاتِ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طِبَّيْتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

[من فوائد ترك الذنوب والمعاصي]:

سبحانَ الله ربَّ العالمين، لو لم يكنْ في تركِ الذنوبِ والمعاصي إلا إقامةُ المروءة، وصَوْنُ العرضِ، وحفظُ الجاهِ، وصيانةُ المالِ - الذي جعله الله قِوامًا لمصالحِ الدنيا والآخرة - ومحبةُ الخلقِ، وجوازُ القولِ بينهم، وصلاحُ المعاشِ، وراحةُ البدنِ، وقوَّةُ القلبِ، وطيبُ النَّفسِ، ونعيمُ القلبِ، وانسراحُ الصدرِ، والأمنُ من مخاوفِ الفساقِ والفسَّاجِرِ، وقلةُ الهمِّ والغمِّ والحزنِ، وعزُّ النَّفسِ عن احتمالِ الذلِّ، وصونُ نورِ القلبِ أنْ تطفئه ظلمةُ المعصية، وحصولُ المخرجِ له مما ضاقَ على الفسَّاقِ والفسَّاجِرِ، وتيسيرُ الرِّزْقِ عليه من حيثُ لا يحتسبُ، وتيسيرُ ما عَسَرَ على أربابِ الفسوقِ والمعاصي، وتسهيلُ الطاعاتِ عليه، وتيسيرُ العلمِ، والثناءُ الحسنُ في النَّاسِ، وكثرةُ الدُّعاءِ له، والحلاوةُ التي يكتسبُها وجهه، والمهابةُ التي تلقى له في قلوبِ النَّاسِ، وانتصارُهم وحميتهم له إذا أُوذِيَ وظلِّمَ، ودَبُّهم عن

عَرَضَهُ إِذَا اغْتَابَهُ مَغْتَابٌ، وَسُرْعَةً إِجَابَةً دَعَائِهِ، وَزَوَالَ الْوَحْشَةِ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَقَرُبُ الْمَلَائِكَةِ مِنْهُ، وَبُعْدُ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَنْهُ، وَتَنَافُسُ النَّاسِ عَلَى خِدْمَتِهِ وَقَضَاءِ حَوَائِجِهِ، وَخِطْبَتُهُمْ لِمُودَّتِهِ وَصَحْبَتِهِ، وَعَدَمُ خَوْفِهِ مِنَ الْمَوْتِ، بَلْ يَفْرَحُ بِهِ لِقُدُومِهِ عَلَى رَبِّهِ وَلِقَائِهِ لَهُ وَمَصِيرِهِ إِلَيْهِ، وَصِغَرُ الدُّنْيَا فِي قَلْبِهِ، وَكِبَرُ الْآخِرَةِ عِنْدَهُ، وَحِرْصُهُ عَلَى الْمَلِكِ الْكَبِيرِ وَالْفُوزِ الْعَظِيمِ فِيهَا، وَذَوْقُ حَلَاوَةِ الطَّاعَةِ، وَوُجُدُ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ، وَدَعَاءُ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَهُ، وَفَرَحُ الْكَاتِبِينَ بِهِ وَدَعَاؤُهُمْ لَهُ كُلِّ وَقْتٍ، وَالزِّيَادَةُ فِي عَقْلِهِ وَفَهْمِهِ وَإِيمَانِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَحَصُولُ مَحَبَّةِ اللَّهِ لَهُ، وَإِقْبَالُهُ عَلَيْهِ، وَفَرَحُهُ بِتَوْبَتِهِ، وَهَكَذَا يَجَازِيهِ بِفَرَحٍ وَسُرُورٍ لَا نِسْبَةَ لَهُ إِلَى فَرَحِهِ وَسُرُورِهِ بِالْمَعْصِيَةِ بَوَاجِهِ مِنَ الْوُجُوهِ.

فهذه بعضُ آثارِ تركِ المعاصي في الدنيا، فإذا ماتَ تَلَقَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِالْبَشَرِيِّ مِنْ رَبِّهِ بِالْجَنَّةِ، وَبَآنَهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِ وَلَا حُزْنٌ، وَيَتَنَقَّلُ مِنْ سَجَنِ الدُّنْيَا وَضَيْقِهَا إِلَى رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ يَتَنَعَّمُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَانَ النَّاسُ فِي الْحَرِّ وَالْعَرَقِ، وَهُوَ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَإِذَا انْصَرَفُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيِ اللَّهِ أَخَذَ بِهِ ذَاتَ الْيَمِينِ مَعَ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ وَحُزْبِهِ الْمَفْلَحِينَ وَ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١، الجمعة: ٥].

فصل : الوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد وقطع العوائق [والعلائق] :

* فالعوائد: السُّكُونُ إِلَى الدَّعَةِ وَالرَّاحَةِ وَمَا أَلْفَهُ النَّاسُ وَاعْتَادُوهُ مِنَ الرُّسُومِ وَالْأَوْضَاعِ، الَّتِي جَعَلُوهَا بِمَنْزِلَةِ الشَّرْعِ الْمُتَّبَعِ، بَلْ هِيَ عِنْدَهُمْ أَعْظَمُ مِنَ الشَّرْعِ؛ فَإِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْهَا وَخَالَفَهَا مَا لَا يُنْكِرُونَ عَلَى مَنْ خَالَفَ صَرِيحَ الشَّرْعِ، وَرَبَّمَا كَفَرُوا أَوْ بَدَّعُوا وَضَلَّلُوا أَوْ هَجَرُوا وَعَاقَبُوا؛ لِمُخَالَفَةِ تِلْكَ الرُّسُومِ، وَأَمَاتُوا لَهَا السُّنْنَ، وَنَصَبُوا أُنْدَادًا لِلرَّسُولِ، يُوَالُونَ عَلَيْهَا وَيُعَادُونَ؛ فَالْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ مَا وَافَقَهَا، وَالْمُنْكَرُ مَا خَالَفَهَا.

وهذه الأوضاعُ والرُّسومُ قد استولتْ على طوائفِ بني آدمَ من الملوكِ والوُلاةِ والفُقهَاءِ والصوفيَّةِ والفقراءِ والمطوِّعينِ والعامَّةِ؛ فُرِّبِي فيها الصَّغِيرُ، ونشَأَ عليها الكَبِيرُ، واتَّخَذَتْ سُنَنًا، بل هي أعظمُ عندَ أصحابِها من السُّنَنِ، الواقِفُ معها محبوسٌ، والمتقيِّدُ بها منقطعٌ، عمَّ بها المُصابُ، وهُجِرَ لأجلِها السُّنَّةُ والكتابُ، مَنْ استنَصَرَ بها فهو عندَ الله مخذولٌ، ومن اقتَدَى بها دونَ كتابِ الله وسُنَّةِ رسوله فهو عندَ الله غيرُ مقبولٍ.

وهذا أعظمُ الحُجُبِ والموانعِ بينَ العبدِ وبينَ النُّفُوزِ إلى الله ورسوله.

*** وأما العوائقُ:** فهي أنواعُ المخالفاتِ ظاهرِها وباطنِها؛ فإنها تُعَوِّقُ القلبَ عن سَيرِهِ إلى الله، وتقطعُ عليه طريقَهُ.

وهي ثلاثةُ أمورٍ: شُرْكٌ، وبدِعةٌ، ومعصيةٌ:

- فيزولُ عائقُ الشُّركِ بتجريدِ التوحيدِ.
- وعائقُ البدِعةِ بتحقيقِ السُّنَّةِ.
- وعائقُ المعصيةِ بتصحيحِ التوبةِ.

وهذه العوائقُ لا تَبِينُ للعبدِ حتَّى يأخَذَ في أَهْبَةِ السَّفَرِ، ويتحقَّقَ بالسَّيرِ إلى الله والدارِ الآخِرَةِ؛ فحينئذٍ تَظْهَرُ له هذه العوائقُ، ويُحَسُّ بتعويقِها له، بحسَبِ قوَّةِ سيرِهِ وتجرُّدِهِ للسَّفرِ، وإلَّا فما دَامَ قاعِدًا لا تَظْهَرُ له كوامنُها وقواطعُها.

*** وأما العلائقُ:** فهي كُلُّ ما تَعلَّقَ به القلبُ دونَ الله ورسوله من ملاذِّ الدُّنيا وشهواتِها ورئاساتِها وصحبَةِ النَّاسِ والتعلُّقِ بهم.

ولا سبيلَ له إلى قطعِ هذه الأُمُورِ الثلاثةِ ورفضِها إلَّا بقوَّةِ التعلُّقِ بالمطلَبِ الأعلى، وإلَّا فقطعُها عليه بدونَ تعلُّقِهِ بمطلوبِهِ ممتنعٌ؛ فإنَّ النفسَ لا تتركُ مألوفَها

ومحبوبها إلا لمحبوب هو أحبُّ إليها منه، وآثرُ عندها منه، وكلما قوِيَ تعلُّقه بمطلوبه ضُعِفَ تعلُّقه بغيره، وكذا بالعكس، والتعلُّق بالمطلوب هو شدَّة الرِّغبة فيه، وذلك على قدر معرفته به وشرفه وفضله على ما سواه.

فصل: [حاجة الخلائق إلى الرسول ﷺ]

لما كَمَلَ الرسول ﷺ مقام الافتقار إلى الله سبحانه أحوَج الخلائق كلَّهم إليه في الدنيا والآخرة:

* أمَّا حاجتهم إليه في الدنيا فأشدُّ من حاجتهم إلى الطعام والشراب والنفس الذي به حياة أبدانهم.

* وأمَّا حاجتهم إليه في الآخرة فإنَّهم يستشفعون بالرُّسل إلى الله حتَّى يُريحهم من ضيق مقامهم، فكُلُّهم يتأخَّر عن الشفاعة فيشفع لهم، وهو الذي يَسْتَفْتَحُ لهم باب الجنَّة.

فصل: [من علامات السعادة والفلاح]

من علامات السعادة والفلاح:

- أنَّ العبدَ كلَّما زِيدَ في علمه زِيدَ في تواضعه ورحمته.
- وكلَّما زِيدَ في عمله زِيدَ في خوفه وحذره.
- وكلَّما زِيدَ في عمره نقصَ من حرصه.
- وكلَّما زِيدَ في ماله زِيدَ في سخائه وبذله.
- وكلَّما زِيدَ في قدره وجاهه زِيدَ في قربه من النَّاسِ وقضاءِ حوائجهم والتواضع لهم.

وعلاماتُ الشقاوة:

- أنه كلما زيدَ في علمه زيدَ في كبره وتيهه.
 - وكلما زيدَ في عمله زيدَ في فخره واحتقاره للناسِ وحسنِ ظنه بنفسه.
 - وكلما زيدَ في عمره زيدَ في حرصه.
 - وكلما زيدَ في ماله زيدَ في بُخله وإمساكه.
 - وكلما زيدَ في قدره وجاهه زيدَ في كبره وتيهه.
- وهذه الأمورُ ابتلاءٌ من الله وامتحانٌ يبتلي بها عباده فيسعدُ بها أقوامٌ، ويشقى بها أقوامٌ.

وكذلك الكراماتُ امتحانٌ وابتلاءٌ، كالملكِ والسلطانِ والمالِ، قال تعالى عن نبيه سليمان لما رأى عرش بلقيسَ عنده: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

فالنعمُ ابتلاءٌ من الله وامتحانٌ يظهرُ بها شكرُ الشكورِ وكفرُ الكفورِ، كما أنَّ المحنَ بلوى منه سبحانه، فهو يبتلي بالنعمِ كما يبتلي بالمصائبِ، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا...﴾ [الفجر: ١٥-١٧].

أي ليس كلُّ من وسَّعتْ عليه وأكرمتْهُ ونعمتْهُ يكونُ ذلك إكراماً مني له، ولا كلُّ مَنْ ضَيَّقتْ عليه وأبتليته يكونُ ذلك إهانةً مني له.

فصل: [من أراد علوً بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه]

من أراد علوً بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدة الاعتناء به؛ فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه.

فالأعمال والدرجات ببيان، وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقاً

حملَ البنيانَ واعتلى عليه، وإذا تهدم شيءٌ من البنيان سهل تداركُه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدم شيءٌ من الأساس سقط البنيانُ أو كاد.

فالعارف همته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس؛ فلا يلبث بنيانه أن يسقط.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَاكِ فَأَتَاهَا بَيْهًا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

فالأساسُ لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان؛ فإذا كانت القوة قويَّة حملت البدنَ ودفعَتْ عنه كثيرًا من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفةً ضعُف حملُها للبدن وكانت الآفاتُ إليه أسرع شيءٍ.

فاحملُ بنيانَكَ على قوَّةِ أساس الإيمان؛ فإذا تشعَّتْ شيءٌ من أعالي البناء وسطحه كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس.

وهذا الأساس أمران:

* صحَّة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته.

* والثاني: تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه.

فهذا أوثق أساسٍ أسَّس العبدُ عليه بنيانه، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء.

فأحكِم الأساس، واحفظ القوة، ودُم على الحمية، واستفرغ إذا زاد بك الخلط، والقصد القصد وقد بلغت المراد، وإلا فما دامت القوة ضعيفةً والمادة الفاسدة موجودةً والاستفراغ معدومًا:

فاقر السَّلام على الحياة فإنَّها ** قد آذنتك بسرعة التَّوديع

فإذا كمل البناء؛ فبيّضه بحسن الخلق والإحسان إلى الناس، ثم حطّه بسور من الحذر لا يقتحمه عدوّ ولا تبدو منه العورة، ثم أرخ الستور على أبوابه، ثم أقفل الباب الأعظم بالسكوت عما تخشى عاقبته، ثم ركب له مفتاحاً من ذكر الله به فتحة وتغلقه؛ فإن فتحت فتحت بالمفتاح، وإن أغلقت الباب أغلقته به، فتكون حينئذٍ قد بنيت حصناً تحصّنت فيه من أعدائك؛ إذا طاف به العدو لم يجد منه مدخلاً، فيأس منك.

ثم تعاهد ببناء الحصن كلّ وقت؛ فإن العدو إذا لم يطمع في الدخول من الباب نقّب عليك النقوب من بعيد بمعاول الذنوب. فإن أهملت أمره وصل إليك النقّب؛ فإذا العدو معك في داخل الحصن، فيصعب عليك إخراجه، وتكون معه على ثلاث خلال: إما أن يغلبك على الحصن ويستولي عليه، وإما أن يساكنك فيه، وإما أن يشغلك بمقابلته عن تمام مصلحتك وتعود إلى سدّ النقّب ولمّ شعث الحصن. وإذا دخل نقبه إليك نالك منه ثلاث آفات:

• إفساد الحصن.

• والإغارة على حواصله وذخائره.

• ودلالة السراق من بني جنسه على عورته.

فلا يزال يبلّى منه بغارة بعد غارة حتى يضعفوا قواه ويوهنوا عزمه فيتخلّى عن الحصن ويخلى بينهم وبينه.

وهذه حال أكثر النفوس مع هذا العدو، ولهذا تراهم يُسخطون ربهم برضى أنفسهم بل برضى مخلوقٍ مثلهم لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً، ويضيعون كسب الدّين بكسب الأموال، ويهلكون أنفسهم بما لا يبقى لهم، ويحرصون على الدنيا وقد أدبرت عنهم، ويزهدون في الآخرة وقد هجمت عليهم، ويخالفون ربهم باتباع

أهوائهم، ويتكلمون على الحياة ولا يذكرون الموت، ويذكرون شهواتهم وحظوظهم وينسون ما عهد الله إليهم، ويهتمون بما ضَمِنَهُ اللهُ لهم ولا يهتمون بما أمرهم به، ويفرحون بالدنيا ويحزنون على فوات حظهم منها ولا يحزنون على فوات الجنة وما فيها، ولا يفرحون بالإيمان فرحهم بالدرهم والدينار، ويُفسدون حقَّهم بباطلهم وهداهم بضالالهم ومعروفهم بمنكرهم، ويلبسُون إيمانهم بظنونهم، ويخلطُون حلالهم بحرامهم، ويترددون في حيرة آرائهم وأفكارهم، ويتركون هدى الله الذي أهدها إليهم.

ومن العجب أن هذا العدو يستعمل صاحب الحصن في هدم حصنه بيديه!

فصل: [أركان الكفر الأربعة]

أركان الكفر أربعة:

* الكِبْرُ.

* والحسدُ.

* والغضبُ.

* والشهوةُ.

• فالكِبْرُ يمنعُ الانقيادُ.

• والحسدُ يمنعُ قبولَ النصيحةِ وبذلها.

• والغضبُ يمنعُ العدلَ.

• والشهوةُ تمنعُ التفرُّغَ للعبادةِ.

ومنشأ هذه الأربعة من جهله بنفسه؛ فإنه لو عرف ربّه بصفات الكمال ونعوت الجلال، وعرف نفسه بالنقائص والآفات لم يتكبر ولم يغضب لها ولم

يحسدُّ أحدًا على ما آتاه الله، فإنَّ الحسدَ في الحقيقةِ نوعٌ منْ معاداةِ الله، فإنَّه يكرهُ نعمةَ الله على عبده وقد أحبَّها الله، ويحبُّ زوالها عنه والله يكرهُ ذلك، فهو مضادُّ لله في قضائه وقدره ومحبيته وكرهته، ولذلك كان إبليسُ عدوَّه حقيقةً؛ لأنَّ ذنبه كان عن كبرٍ وحسدٍ.

فقلعُ هاتين الصِّفتينِ بمعرفةِ الله وتوحيده والرضا به وعنه والإنابةِ إليه، وقلعُ الغضبِ بمعرفةِ النَّفسِ، وأنها لا تستحقُّ أنْ يغضبَ لها وينتقمَ لها، فإنَّ ذلك إيشارٌ لها بالرضا والغضبِ على خالقها وفاطرها.

وأعظمُ ما تدفعُ به هذه الآفةُ أنْ يعودَها أنْ تغضبَ له سبحانه وترضى له، فكلِّما دخلها شيءٌ من الغضبِ والرضا له خرجَ منها مقابله من الغضبِ والرضا لها، وكذا بالعكسِ.

أما الشهوةُ فدواؤها صحَّةُ العلمِ والمعرفةِ بأنَّ إعطاءها شهواتها أعظمُ أسبابِ حرمانها إيَّاه ومنعها منها، وحميَّتها أعظمُ أسبابِ اتصالها إليها، فكلِّما فتحتَ عليها بابَ الشهواتِ كُنتَ ساعياً في حرمانها إيَّاه، وكلِّما أغلقتَ عنها ذلك البابَ كُنتَ ساعياً في إيصالها إليها على أكملِ الوجوه.

فالغضبُ مثلُ السَّبُعِ إذا أفلتهُ صاحبه بدأ بأكلِهِ، والشهوةُ مثلُ النَّارِ إذا أضرمها صاحبها بدأت بإحراقِهِ، والكبرُ بمنزلةِ منازعةِ المَلِكِ مُلكه فإنَّ لم يهلكك طردك عنه، والحسدُ بمنزلةِ معاداةٍ منْ هو أقدرُ منك، والذي يغلبُ شهوتهَ وغضبه يفرقُ ^(١) الشيطانَ من ظله، ومنْ تغلبه شهوتهُ وغضبه يفرقُ من خياله.

فصل: [غراس العمر]

السَّنةُ شجرةٌ، والشَّهورُ فروعُها، والأيَّامُ أغصانُها، والساعاتُ أوراقُها،

(١) يفرق: الفرق: الخوف والفرع.

والأنفاسُ ثمرُها، فمن كانتْ أنفاسُه في طاعةٍ: فثمره شجرته طيبةً، ومن كانت في معصيةٍ فثمرته حنظلٌ، وإنَّما يكونُ الجدادُ^(١) يومَ المعادِ، فعندَ الجدادِ يتبيَّنُ حلوُ الثمارِ من مرَّها.

والإخلاصُ والتوحيدُ شجرةٌ في القلبِ؛ فروعُها الأعمالُ، وثمرُها طيبُ الحياةِ في الدنيا والنعيمُ المقيمُ في الآخرةِ، وكما أنَّ ثمارَ الجنةِ لا مقطوعةٌ ولا ممنوعةٌ، فثمره التوحيدُ والإخلاصُ في الدنيا كذلك.

والشركُ والكذبُ والرياءُ شجرةٌ في القلبِ؛ ثمرُها في الدنيا الخوفُ والهَمُّ والغمُّ وضيقُ الصدرِ وظلمةُ القلبِ، وثمرُها في الآخرةِ الزَّقومُ والعذابُ المقيمُ، وقد ذكر الله هاتين الشجرتين في سورة إبراهيم.

فصل: [حياة الأرواح]

خُلِقَ بَدَنُ ابْنِ آدَمَ مِنَ الْأَرْضِ، وَرُوحُهُ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاءِ، وَقُرِنَ بَيْنَهُمَا، فَإِذَا أَجَاعَ بَدَنُهُ وَأَسْهَرَهُ وَأَقَامَهُ فِي الْخِدْمَةِ؛ وَجَدَتْ رُوحُهُ خِيفَةً وَرَاحَةً فَتَاقَتْ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي خُلِقَتْ مِنْهُ، وَاشْتَاقَتْ إِلَى عَالِمِهَا الْعُلُويِّ، وَإِذَا أَشْبَعَهُ وَنَعَّمَهُ وَنَوَّمَهُ وَاشْتَغَلَ بِخِدْمَتِهِ وَرَاحَتِهِ، أَخْلَدَ الْبَدَنُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ، فَانْجَذَبَتْ الرُّوحُ مَعَهُ فَصَارَتْ فِي السَّجَنِ، فَلَوْلَا أَنَّهَا أَلْفَتِ السَّجْنَ لَا سْتَغَاثَتْ مِنْ أَلَمِ مَفَارِقَتِهَا وَانْقِطَاعِهَا عَنْ عَالِمِهَا الَّذِي خُلِقَتْ مِنْهُ كَمَا يَسْتَغِيثُ الْمَعَذَّبُ.

وبالجملة، فكَلَّمَا خَفَّ الْبَدَنُ لَطْفِ الرُّوحِ وَخَفَّتْ وَطَلِبَتْ عَالِمِهَا الْعُلُويَّ، وَكَلَّمَا ثَقُلَ وَأَخْلَدَ إِلَى الشَّهَوَاتِ وَالرَّاحَةِ ثَقُلَتِ الرُّوحُ، وَهَبَطَتْ مِنْ عَالِمِهَا، وَصَارَتْ أَرْضِيَّةً سَفَلِيَّةً.

(١) الجداد - بالفتح والكسر -: صرام النخل، وهو قطع ثمرتها.

فصل [في دعوة العارف للناس]

العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا؛ فإنهم لا يقدرُونَ على تركها، ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم؛ فترك الدنيا فضيلة وترك الذنوب فريضة؛ فكيف يؤمر بالفضيلة من لم يُقم الفريضة؟!

فإن صعبَ عليهم ترك الذنوب؛ فاجتهد أن تُحببَ الله إليهم بذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وصفات كماله ونعوت جلاله؛ فإن القلوب مفطورة على محبته؛ فإذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنوب والاستقلال منها والإصرار عليها.

وقد قال يحيى بن معاذ: طلبُ العاقلِ للدنيا خيرٌ من تركِ الجاهلِ لها.

العارف يدعو الناس إلى الله من دنياهم فتسهل عليهم الإجابة، والزاهد يدعوهم إلى الله بترك الدنيا؛ فتشق عليهم الإجابة؛ فإن الفطام عن الثدي الذي ما عقل الإنسان نفسه إلا وهو يرتضع منه شديداً، ولكن تخير من المراضعات أركاهن وأفضلهن؛ فإن اللبن تأثيراً في طبيعة المرتضع، ورضاع المرأة الحمقى يعود بحمق الولد، وأنفع الرضاعة ما كان من المجاعة، فإن قويت على مرارة الفطام، وإلا فارتضع بقدر؛ فإن من البشَم ما يقتل.

فصل [عبر ومواعظ]

- بين رعاية الحقوق مع الضرر ورعايتها مع العافية بون بعيد.

• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ [الأنفال: ٤٥].

- ليس العجب من صحيح فارغ واقف مع الخدمة، إنما العجب من ضعيف سقيم تعثره الأشغال، وتختلف عليه الأحوال، وقلبه واقف في الخدمة غير متخلف بما يقدر عليه.

فصل: [أنواع معرفة الله]

معرفة الله سبحانه نوعان:

* الأول: معرفة إقرار؛ وهي التي اشترك فيها الناس؛ البر والفاجر، والمطيع والعاصي.

* والثاني: معرفة توجب الحياء منه، والمحبة له، وتعلق القلب به، والشوق إلى لقائه، وخشيته، والإنابة إليه، والأنس به، والفرار من الخلق إليه.

ولهذه المعرفة بابان واسعان:

• الباب الأول: التفكير والتأمل في آيات القرآن كلها، والفهم الخاص عن الله ورسوله.

• والباب الثاني: التفكير في آياته المشهودة، وتأمل حكمته فيها وقدرته ولطفه، وإحسانه، وعدله، وقيامه بالقسط على خلقه.

وجماع ذلك: الفقه في معاني أسمائه الحسنی، وجلالها وكمالها وتفردِه بذلك، وتعلقها بالخلق والأمر، فيكون فقيهاً في أوامره ونواهيه، فقيهاً في قضائه وقدره، فقيهاً في أسمائه وصفاته، فقيهاً في الحكم الديني الشرعي والحكم الكوني القدري، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١، الجمعة: ٥].

فصل: [أنواع الدراهم]

الدراهم أربعة:

* درهم اكتسب بطاعة الله وأُخرج في حق الله، فذاك خير الدراهم.

* ودرهم اكتسب بمعصية الله وأُخرج في معصية الله، فذاك شر الدراهم.

* ودرهم اكتسب بأذى مسلم وأُخرج في أذى مسلم، فهو كذلك.

* ودرهمٌ اكتسبَ بمُبَاحٍ وأنفقَ في شهوةٍ مباحةٍ، فذاك لا له ولا عليه.

هذه أصولُ الدراهم، ويتفرَّعُ عليها دراهمٌ أُخرُ: منها درهمٌ اكتسبَ بحقٍّ وأنفقَ في باطلٍ، ودرهمٌ اكتسبَ بباطلٍ وأنفقَ في حقٍّ، فإنفاقُهُ كَفَّارَتُهُ، ودرهمٌ اكتسبَ من شبهةٍ، فكفَّارَتُهُ أَنْ يُنْفَقَ في طاعةٍ.

وكما يتعلَّقُ الثوابُ والعقابُ والمدحُ والذمُّ بإخراجِ الدرهم؛ فكذلك يتعلَّقُ باكتسابه، وكذلك يُسألُ عن مستخرجه ومصرفه: من أين اكتسبه، وفيما أنفقه؟

فصل: [أنواع المواساة للمؤمنين]

المواساةُ للمؤمنين أنواعٌ:

- مواساةٌ بالمال.
- ومواساةٌ بالجاه.
- ومواساةٌ بالبدنِ والخدمة.
- ومواساةٌ بالنصيحةِ والإرشاد.
- ومواساةٌ بالدُّعاءِ والاستغفارِ لهم.
- ومواساةٌ بالتوجُّعِ لهم.

وعلى قَدَرِ الإيمانِ تكونُ هذه المواساةُ، فكلَّما ضَعُفَ الإيمانُ ضَعُفَتِ المواساةُ، وكلما قويَ قويَتْ، وكان رسولُ الله ﷺ أعظمَ النَّاسِ مواساةً لأصحابه بذلك كُلِّهِ، فلا تَباعه من المواساةِ بحسبِ اتِّباعِهِمْ له.

فصل: [في تبعات الجهل بالطريق وآفاته]

الجهلُ بالطريقِ وآفَاتِها والمقصودُ: يُوجبُ التَّعبَ الكثيرَ مع الفائدةِ القليلةِ؛

فإنَّ صاحبه:

- * إما أن يجتهدَ في نافلةٍ مع إضاعةِ الفَرَضِ.
 - * أو في عملٍ بالجوارحِ لم يواطئه عملُ القلبِ.
 - * أو عملٍ بالباطنِ والظاهرُ لم يتقيدَ بالاعتداءِ.
 - * أو هِمَّةٍ إلى عملٍ لم تَرَقَّ بصاحبها إلى ملاحظةِ المقصودِ.
 - * أو عملٍ لم يحترزْ من آفاتهِ المفسدةِ له حالَ العملِ وبعده.
 - * أو عملٍ غفلَ فيه عن مشاهدةِ المِنَّةِ فلم يتجرّدْ عن مشاركةِ النَّفسِ فيه.
 - * أو عملٍ لم يشهدْ تقصيره فيه؛ فيقومُ بعده في مقامِ الاعتذارِ منه.
 - * أو عملٍ لم يُوفِّه حَقَّهُ من النَّصْحِ والإحسانِ، وهو يظنُّ أنَّه وفَّاه.
- فهذا كُلُّهُ مما يُنْقِصُ الثَّمَرَ مع كثرةِ التَّعبِ. واللهُ الموفقُّ.

فصل: [في الخوادم والقواطع في طريق السفر إلى الله]

إذا عزمَ العبدُ على السفرِ إلى الله تعالى وإرادته عرضت له الخوادم والقواطعُ:

- فينخدعُ أولاً بالشهواتِ والرئاساتِ والملاذِّ والمناكحِ والملابسِ.
- فإنَّ وقفَ معها انقطعَ، وإنَّ رفضها ولم يقفْ معها وصدقَ في طلبه ابتليَ بوطءٍ عَقِبِهِ، وتقبيلِ يدهِ، والتَّوسُّعِ له في المجلسِ، والإشارةِ إليه بالدُّعاءِ، ورجاءِ بَرَكَتِهِ، ونحو ذلك.
- فإنَّ وقفَ معه انقطعَ به عن الله، وكان حظُّه منه، وإنَّ قَطَعَهُ ولم يقفْ معه ابتليَ بالكراماتِ والكُشُوفاتِ.

• فَإِنْ وَقَفَ مَعَهَا انْقَطَعَ بِهَا عَنِ اللَّهِ وَكَانَتْ حَظُّهُ، وَإِنْ لَمْ يَقِفْ مَعَهَا ابْتُلِيَ بِالتَّجْرِيدِ، وَالتَّخْلِي، وَلَذَّةِ الْجَمْعِيَّةِ، وَعِزَّةِ الْوَحْدَةِ، وَالْفَرَاغِ مِنَ الدُّنْيَا.

• فَإِنْ وَقَفَ مَعَ ذَلِكَ انْقَطَعَ بِهِ عَنِ الْمَقْصُودِ، وَإِنْ لَمْ يَقِفْ مَعَهُ وَسَارَ نَاطِرًا إِلَىٰ مَرَادِ اللَّهِ مِنْهُ وَمَا يُحِبُّهُ مِنْهُ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ عَبْدُهُ الْمَوْقُوفَ عَلَىٰ مُحَابَّهِ وَمَرَاضِيهِ، أَيْنَ كَانَتْ، وَكَيْفَ كَانَتْ؛ تَعَبَ بِهَا أَوْ اسْتَرَاحَ تَنَعَّمَ أَوْ تَأَلَّمَ، أَخْرَجَتْهُ إِلَىٰ النَّاسِ أَوْ عَزَلَتْهُ عَنْهُمْ.

لَا يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ غَيْرَ مَا يَخْتَارُهُ لَهُ وَلِيُّهُ وَسَيِّدُهُ، وَاقِفٌ مَعَ أَمْرِهِ، يَنْفِذُهُ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ، وَنَفْسُهُ عِنْدَهُ أَهْوَىٰ عَلَيْهِ أَنْ يُقَدِّمَ رَاحَتَهَا وَلَذَّتْهَا عَلَىٰ مَرْضَاةِ سَيِّدِهِ وَأَمْرِهِ؛ فَهَذَا هُوَ الْعَبْدُ الَّذِي قَدْ وَصَلَ وَنَفَذَ، وَلَمْ يَقْطَعْهُ عَنِ سَيِّدِهِ شَيْءٌ الْبَتَّةَ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

فصل: [أقسام النعم]

النَّعْمُ ثَلَاثَةٌ:

* نِعْمَةٌ حَاصِلَةٌ يَعْلَمُ بِهَا الْعَبْدُ.

* وَنِعْمَةٌ مُنْتَظَرَةٌ يَرْجُوهَا.

* وَنِعْمَةٌ هِيَ فِيهَا لَا يَشْعُرُ بِهَا.

فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ إِتِمَامَ نِعْمَتِهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ عَرَفَهُ نِعْمَتَهُ الْحَاضِرَةَ، وَأَعْطَاهُ مِنْ شُكْرِهِ قِيدًا يَقْيِدُهَا بِهِ حَتَّىٰ لَا تَشْرُدَ؛ فَإِنَّهَا تَشْرُدُ بِالْمَعْصِيَةِ، وَتُقَيِّدُ بِالشُّكْرِ، وَوَفَّقَهُ لِعَمَلٍ يَسْتَجْلِبُ بِهِ النِّعْمَةَ الْمُنْتَظَرَةَ، وَبَصَّرَهُ بِالطَّرِيقِ الَّتِي تَسُدُّهَا وَتَقْطَعُ طَرِيقَهَا، وَوَفَّقَهُ لِاجْتِنَابِهَا، وَإِذَا بِهَا قَدْ وَافَتْ إِلَيْهِ عَلَىٰ أَتَمِّ الْوُجُوهِ، وَعَرَفَهُ النِّعَمَ الَّتِي هِيَ فِيهَا وَلَا يَشْعُرُ بِهَا.

قاعدة جلييلة : [أهمية الخواطر والتصورات]

مبدأ كل علم نظريّ وعمل اختياريّ هو الخواطر والأفكار، فإنّها توجبُ التصوّرات، والتصوّرات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة.

فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها، فصلاح الخواطر بأن تكون مُراقبةً لوليّها وإلهها، صاعدةً إليه دائرةً على مرضاته ومحابه، فإنّه سبحانه به كل صلاح، ومن عنده كل هدى، ومن توفيقه كل رشد، ومن تولّيه لعبده كل حفظ، ومن تولّيه وإعراضه عنه كل ضلالٍ وشقاء، فيظفر العبد بكل خيرٍ وهدى ورشدٍ بقدر إثبات عَيْن فكرته في آلائه ونعمه وتوحيده وطُرُق معرفته، وطُرُق عبوديته وإنزاله إياه حاضرًا معه مشاهدًا له، ناظرًا إليه، رقيبًا عليه، مطلقًا على خواطره وإرادته وهمّه، فحينئذ يستحيي منه ويُجلّه أن يُطلعه منه على عورةٍ يكره أن يُطلع عليها مخلوقٌ مثله، أو يرى في نفسه خاطرًا يملكه عليه.

واعلم أن الخطرات والوساوس تؤدّي متعلقاتها إلى الفكر، فيأخذها الفكر فيؤدّيها إلى التذكّر، فيأخذها الذكّر فيؤدّيها إلى الإرادة، فتأخذها الإرادة فتؤدّيها إلى الجوارح والعمل؛ فتستحكم، فتصير عادةً، فردّها إلى مبادئها أسهل من قطعها بعد قوّتها وتمامها.

فإذا دفعت الخاطر الوارد عليك اندفع عنك ما بعده، وإن قبلته صار فكرًا جوالًا، فاستخدم الإرادة؛ فتساعدت هي والفكر على استخدام الجوارح، فإن تعذّر استخدامها رجعا إلى القلب بالتمني والشهوة، وتوجّه إلى جهة المراد.

وإياك أن تمكّن الشيطان من بيت أفكارك وإرادتك، فإنّه يُفسدُها عليك فسادًا يصعب تداركه، ويلقي إليك أنواع الوسوس والأفكار المضرة، ويحول بينك

وبينَ الفكرِ فيما ينفعُك، وأنتَ الذي أعتته على نفسك بتمكينه من قلبك وخواطركَ فملكها عليك.

والذي يُلقيه الشيطان في النَّفسِ لا يخرجُ عن الفكرِ فيما كان ودخل في الوجود لو كان على خلاف ذلك، وفيما لم يكن لو كان كيف يكون، أو فيما لم يملكُ الفكرُ فيه من أنواعِ الفواحشِ والحرام، أو في خيالاتٍ وهميةٍ لا حقيقةَ لها، أو في باطل، أو فيما لا سبيلَ إلى إدراكه من أنواعٍ ما طُوي عنه علمه، فيُلقيه في تلكَ الخواطرِ التي لا يبلغُ منها غايةً ولا يقفُ منها على نهايةٍ، فيجعلُ ذلكَ مجالَ فكره ومسرَحَ وهمه.

وجماعُ إصلاحِ ذلك: أن تشغلَ فكرَكَ في بابِ العلومِ والتصوراتِ؛ بمعرفةٍ ما يلزمُك من التوحيدِ وحقوقه، وفي الموتِ وما بعده إلى دخولِ الجنةِ والنارِ، وفي آفاتِ الأعمالِ وطرقِ التحرُّزِ منها، وفي بابِ الإراداتِ والعُزُومِ؛ أن تشغلَ نفسك بإرادةٍ ما ينفعُك إرادته، وطرحِ إرادةٍ ما يضرُّك إرادته.

وعندَ العارفينَ: أن تمنِّيَ الخيانةَ وإشغالَ الفكرِ والقلبِ بها أضُرَّ على القلبِ من نفسِ الخيانةِ، ولاسيما إذا فرغَ قلبه منها بعد مباشرتها، فإنَّ تمنِّيها يشغلُ القلبَ ويملؤه منها، ويجعلها همَّه ومُرادَه.

فائدة: [أصناف الناس في معرفة الله]

* من النَّاسِ مَنْ يَعْرِفُ اللَّهَ بِالْجُودِ وَالْإِفْضَالِ وَالْإِحْسَانِ.

* ومنهم: مَنْ يَعْرِفُهُ بِالْعَفْوِ وَالْحِلْمِ وَالتَّجَاوُزِ.

* ومنهم: مَنْ يَعْرِفُهُ بِالْبَطْشِ وَالْإِنْتِقَامِ.

* ومنهم: مَنْ يَعْرِفُهُ بِالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ.

* ومنهم: مَنْ يَعْرِفُهُ بِالْعِزَّةِ وَالْكِبْرِيَاءِ.

* ومنهم: مَنْ يَعْرِفُهُ بِالرَّحْمَةِ وَالْبِرِّ وَاللُّطْفِ.

* ومنهم: مَنْ يَعْرِفُهُ بِالْقَهْرِ وَالْمُلْكِ.

* ومنهم: مَنْ يَعْرِفُهُ بِإِجَابَةِ دَعْوَتِهِ وَإِغَاثَةِ لَهْفَتِهِ وَقَضَاءِ حَاجَتِهِ.

* وَأَعْمُهُمْ هَؤُلَاءِ مَعْرِفَةُ: مَنْ عَرَفَهُ مِنْ كَلَامِهِ؛ فَإِنَّهُ يَعْرِفُ رَبًّا قَدْ اجْتَمَعَتْ لَهُ صِفَاتُ الْكَمَالِ وَنَعَوْتُ الْجَلَالِ، مَنْزَعَةٌ عَنِ الْمَثَالِ، بَرِيءٌ مِنَ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ، لَهُ كُلُّ اسْمٍ حَسَنٍ، وَكُلُّ وَصْفٍ كَمَالٍ، فَعَالٌ لَمَّا يَرِيدُ، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَعَ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَمَقِيمٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، أَمْرٌ، نَاهٍ، مُتَكَلِّمٌ بِكَلِمَاتِهِ الدِّينِيَّةِ وَالْكَوْنِيَّةِ، أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَجْمَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَقْدَرُ الْقَادِرِينَ، وَأَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ.

فَالْقُرْآنُ أَنْزَلَ لَتَعْرِيفِ عِبَادِهِ بِهِ، وَبَصْرَاطِهِ الْمُوَصِّلِ إِلَيْهِ، وَبِحَالِ السَّالِكِينَ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

فائدة: [لَا تَمْلُوا النِّعَمَ]

مِنَ الْآفَاتِ الْخَفِيَّةِ الْعَامَّةِ: أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ فِي نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِ وَاخْتَارَهَا لَهُ، فَيَمْلُهَا وَيَطْلُبَ الْإِنْتِقَالَ مِنْهَا إِلَى مَا يَزْعُمُ - لَجْهَلِهِ - أَنَّهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْهَا، وَرُبُّهُ بِرَحْمَتِهِ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ تِلْكَ النِّعْمَةِ، وَيَعْذُرُهُ بِجَهْلِهِ وَسُوءِ اخْتِيَارِهِ لِنَفْسِهِ، حَتَّى إِذَا ضَاقَ ذَرْعًا بِتِلْكَ النِّعْمَةِ وَسَخِطَهَا وَتَبَرَّمَ بِهَا وَاسْتَحْكَمَ مَلَلُهَا؛ سَلَبَهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَإِذَا انْتَقَلَ إِلَى مَا طَلَبَهُ وَرَأَى التَّفَاوُتَ بَيْنَ مَا كَانَ فِيهِ وَمَا صَارَ إِلَيْهِ، اشْتَدَّ قَلْقُهُ وَنَدَمُهُ وَطَلَبَ الْعُودَةَ إِلَى مَا كَانَ فِيهِ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَهُ خَيْرًا وَرَشْدًا أَشْهَدَهُ أَنَّ مَا هُوَ فِيهِ نِعْمَةٌ مِنْ نِعَمِهِ عَلَيْهِ وَرِضَاهُ بِهِ، وَأَوْزَعَهُ شُكْرَهُ عَلَيْهِ، فَإِذَا حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِالْإِنْتِقَالِ عَنْهُ اسْتَخَارَ رَبَّهُ اسْتِخَارَةً جَاهِلٍ بِمَصْلَحَتِهِ عَاجِزٍ عَنْهَا، مُفَوِّضٍ إِلَى اللَّهِ، طَالِبٍ مِنْهُ

حُسْنَ اختياره له.

وليس على العبدِ أضُرُّ من مَلَلِه لنعم الله، فَإِنَّه لا يراها نعمةً ولا يشكرُها عليها، ولا يفرحُ بها، بل يَسْخَطُها ويشكوها ويعدُّها مصيبةً، هذا وهي من أعظمِ نِعَمِ الله عليه! فأكثرُ الناسِ أعداءُ نِعَمِ الله عليهم، ولا يشعرونَ بفتح الله عليهم نعمةً، وهم مجتهدونَ في دفعِها وردِّها جهلاً وظلماً، فكم سَعَتْ إلى أحدهم من نعمةٍ وهو ساعٍ في ردِّها بجَهْدِه! وكم وصلت إليه وهو ساعٍ في دفعِها وزوالها بظلمه وجهله! قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُ أَمَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

[الأنفال: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُ أَمَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فليس للنعمِ أعدى من نفسِ العبدِ، فهو مع عدوِّه ظهيرٌ على نفسه، فعُدُوهُ يطرحُ النَّارَ في نعمةٍ وهو ينفخُ فيها، فهو الذي مكَّنه من طرحِ النارِ ثم أعانَه بالنفخِ، فإذا اشتدَّ ضرامُها استغاثَ من الحريقِ، وكانَ غايتهُ معاتبةَ الأقدارِ. وعاجزُ الرَّأيِ مضياغٌ لفرصتِه * * حتى إذا فاتَ أمرٌ عاتبَ القَدَرَا

فصل: [في معرفة الله بالجمال]

من أعزَّ أنواعِ المعرفةِ: معرفةُ الربِّ سبحانه بالجمالِ، وهي معرفةُ خواصِّ الخلقِ، وكلُّهم عَرَفُوهُ بصفةٍ من صفاته، وأتمُّهم معرفةً مَنْ عَرَفُوهُ بكمالِه وجلالِه وجمالِه، سبحانه ليس كمثله شيءٌ في سائرِ صفاته.

ولو فَرَضْتَ الخَلْقَ كُلَّهُم على أجملِهم صورةً، وكلُّهم على تلكِ الصورةِ، ونَسَبْتَ جمالَهم الظاهرَ والباطنَ إلى جمالِ الرَّبِّ سبحانه؛ لكانَ أَقَلُّ من نسبةِ سراجٍ ضعيفٍ إلى قُرْصِ الشَّمْسِ.

* ويكفي في جمالِه أنه لو كَشَفَ الحِجَابَ عن وجهِه لأحرقَتْ سُبُحاتُه ما

انتهى إليه بصره من خلقه^(١).

* ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته؛ فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال؟!

* ويكفي في جماله أنه له العزة جميعاً، والقوة جميعاً، والجود كله، والإحسان كله، والعلم كله، والفضل كله، ولنور وجهه أشرق الظلمات؛ كما قال النبي ﷺ في دعاء الطائف: "أعوذ بنور وجهك الذي أشرق له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة"^(٢)، ومن أسمائه الحسنی: الجميل، وفي الصحيح عنه ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»^(٣).

وجماله سبحانه على أربع مراتب:

• جمال الذات.

• جمال الصفات.

• جمال الأفعال.

• جمال الأسماء.

فأسماءه كلها حسنى، وصفاته كلها صفات كمال، وأفعاله كلها حكمة ومصالحة وعدل ورحمة. وأما جمال الذات، وما هو عليه، فأمر لا يدركه سواه، ولا يعلمه غيره، وليس عند المخلوقين منه إلا تعريفات تعرف بها إلى من أكرمته من عباده، فإن ذلك الجمال مصون عن الأغيار محجوب بستر الرداء والإزار، كما

(١) مسلم (١٧٩).

(٢) الطبراني في "الدعاء" (١٠٣٦)، وهو ضعيف.

(٣) مسلم (٩١).

قال رسوله ﷺ فيما يُحكى عنه: «الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، والعِظْمَةُ إِزَارِي»^(١)، ولما كانت الكبرياءُ أعظم وأوسع كانت أحقَّ باسمِ الرِّدَاءِ؛ فإنه سبحانه الكبيرُ المتعال، فهو سبحانه العليُّ العظيمُ.

فصل

وقوله في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ» يتناول جمالَ الثيابِ المسؤولِ عنه في نفسِ الحديثِ، ويدخلُ فيه بطريقِ العمومِ الجمالُ من كلِّ شيءٍ، كما في الحديثِ الآخر: «إِنَّ اللَّهَ نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ»^(٢)، وفي الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»^(٣)، وفي السنن: «اللَّهُ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»^(٤).

وفيها: عن أبي الأحوص الجُشَمِي، [عن أبيه]؛ قال: «رَأَى النَّبِيُّ ﷺ وَعَلَيَّ أَطْمَارًا، فَقَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ مَالٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟ قُلْتُ: مِنْ كُلِّ مَا أَتَى اللَّهَ مِنَ الْإِبْلِ وَالشَّاءِ. قَالَ: فَلْتُرْ نِعْمَتَهُ وَكَرَامَتَهُ عَلَيْكَ»^(٥)، فهو سبحانه يحبُّ ظهورَ أثرِ نعمته على عبده؛ فإنَّه من الجمالِ الذي يحبُّه، وذلك من شكره على نعمه، وهو جمالٌ باطنٍ؛ فيحبُّ أَنْ يَرَى عَلَى عَبْدِهِ الْجَمَالَ الظَّاهِرَ بِالنِّعْمَةِ وَالْجَمَالَ الْبَاطِنَ بِالشُّكْرِ عَلَيْهَا.

ولمحبَّته سبحانه للجمالِ أنزلَ على عباده لباسًا وزينةً تُجَمِّلُ ظواهرهم وتقوى تُجَمِّلُ بواطنهم؛ فقال: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكْمُ وَرِدِشًا وَلِبَاسًا النَّقْوَى ذَلِكَ حَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقال في أهلِ الجنة: ﴿وَلَقَنَّهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾^(١١)

(١) أبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤).

(٢) الترمذي (٢٧٩٩). وهو ضعيف.

(٣) مسلم (١٠١٥).

(٤) الترمذي (٢٨١٩).

(٥) أبو داود (٤٠٦٣)، والترمذي (٢٠٠٦)، والنسائي (٥٣٠٩).

وَجَزَّيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١١﴾ [الإنسان: ١١ - ١٢]؛ فجمَّل وجوههم بالنَّصْرَةِ وبواطنهم بالشُّرُورِ وأبدانهم بالحريِرِ.

وهو سبحانه كما يحبُّ الجمالَ في الأقوالِ والأفعالِ واللباسِ والهيئةِ يُبغِضُ القبيحَ من الأقوالِ والأفعالِ والثيابِ والهيئةِ؛ فيُبغِضُ القبيحَ وأهلَه، ويحبُّ الجمالَ وأهلَه.

فصل: [الصدق مع الله]

ليسَ للعبدِ شيءٌ أنفعَ من صدقِه ربَّه في جميعِ أمورِه مع صدقِ العزيمةِ، فيَصْدُقُه في عزمِه وفي فعلِه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ الْأَمْرُ فَلَوْ كَذَبُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

* فسعادتهُ في صِدْقِ العزيمةِ وصدقِ الفعلِ، فصدقُ العزيمةِ: جمعُها وجزؤها وعدمُ التردُّدِ فيها، بل تكون عزيمةً لا يشوبها تردُّدٌ ولا تلوُّمٌ، فإذا صدقتْ عزمته بقي عليه صِدْقُ الفعلِ، وهو: استفراغُ الوُسْعِ وبذلُ الجهدِ فيه، وألا يتخلَّفَ عنه بشيءٍ من ظاهرِه وباطنِه، فعزيمةُ القصدِ تمنعه من ضعفِ الإرادةِ والهمَّةِ، وصدقُ الفعلِ يمنعه من الكسلِ والفتورِ.

وَمَنْ صدَّقَ اللهَ في جميعِ أمورِه صَنَعَ اللهُ له فوقَ ما يصنعُ لغيرِه.

وهذا الصدقُ معنًى يلتزمُ من صحَّةِ الإخلاصِ وصدقِ التوكُّلِ، فأصدقُ النَّاسِ مَنْ صَحَّ إِخْلَاصُهُ وَتَوَكَّلَهُ.

فصل: [أعظم الظلم والجهل]

من أعظم الظلمِ والجهلِ: أَنْ تطلبَ التعظيمَ والتوقيرَ لك من النَّاسِ، وقلبك خالٍ من تعظيمِ الله وتوقيره، فإنَّكَ توقِّرُ المخلوقَ وتُجِلُّه أَنْ يراك في حالٍ لا توقِّرُ

الله أن يراك عليها، قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

والمقصود: أن مَنْ لَا يُوقِّرُ الله وكلامه وما آتاه من العلم والحكمة؛ كيف يطلب من الناس توقيره وتعظيمه؟ القرآن والعلم وكلام الرسول ﷺ صَلَاتٌ من الحق، وتنبهات وروادع وزواجر واردة إليك، والشَّيْبُ زاجرٌ وراذعٌ موقظٌ قائمٌ بك، فلا ما وَرَدَ إِلَيْكَ وَعَظَكَ! ولا ما قَامَ بِكَ نَصَحَكَ! ومع هذا تطلبُ التوقيرَ والتعظيمَ من غيرِكَ! فأنت كمُصابٍ لم تؤثر فيه مصيئته وعظاً وانزجاراً، وهو يطلبُ من غيره أَنْ يَتَّعِظَ وينزجرَ بالنظرِ إلى مُصَابِهِ، فالضربُ لم يؤثر فيه زجرًا، وهو يريدُ الانزجارَ ممن نظرَ إلى ضربه.

فالطالبُ الصادقُ في طلبه كلما خربَ شيءٌ من ذاته جعله عمارةً لقلبه ورُوحه، وكلما نقصَ شيءٌ من دنياه جعله زيادةً في آخرته، وكلما مُنِعَ شيئاً من لذاتِ دنياه جعله زيادةً في لذاتِ آخرته، وكلما ناله همٌّ أو حزنٌ أو غمٌّ جعله في أفراحِ آخرته.

فنقصانُ بدنه ودنياه ولذته وجاهه ورئاسته؛ إن زاد في حصولِ ذلك وتوفيره عليه في معاده، كان رحمةً به وخيراً له، وإلا كان حرماناً وعقوبةً على ذنوب ظاهرة أو باطنة، أو تركٍ واجبٍ ظاهرٍ أو باطنٍ؛ فإنَّ حرمانَ خيرِ الدنيا والآخرة مرتَّبٌ على هذه الأربعة، وبالله التوفيقُ.

فائدة: [السفر إلى الله تعالى]

النَّاسُ منذ خُلِقُوا لم يزالوا مسافرين، وليسَ لهم حَطٌّ عن رحالهم إلا في الجنةِ أو النارِ.

والعقلُ يعلمُ أنَّ السَّفَرَ مبنيٌّ على المشقةِ وركوبِ الأخطارِ، ومن المحالِ عادةً أن يُطْلَبَ فيه نعيمٌ ولذةٌ وراحةٌ، إنَّما ذاك بعدَ انتهاءِ السفرِ، ومن المعلومِ أنَّ

كُلَّ وَطْأَةً قَدَمٌ أَوْ كَلَّ آتٍ مِنْ آتَاتِ السَّفَرِ غَيْرُ وَاقِفَةٍ، وَلَا الْمَكْلَفُ وَاقِفٌ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ مُسَافِرٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمَسَافِرُ عَلَيْهَا مِنْ تَهْيِئَةِ الزَّادِ الْمَوْصِلِ، وَإِذَا نَزَلَ أَوْ نَامَ، أَوْ اسْتَرَاحَ؛ فَعَلَى قَدَمِ الْإِسْتِعْدَادِ لِلسَّيْرِ.

فصل : [من مداخل الشيطان على العبد]

كُلُّ ذِي لُبٍّ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا طَرِيقَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتٍ:

- إحداهما: التزُّيدُ والإسرافُ، فيزيدُ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ، فَتَصِيرُ فَضْلَةً وَهِيَ حِظُّ الشَّيْطَانِ وَمَدْخَلُهُ إِلَى الْقَلْبِ، وَطَرِيقُ الْإِحْتِرَازِ مِنْهُ: الْإِحْتِرَازُ مِنْ إِعْطَاءِ النَّفْسِ تَمَامَ مَطْلُوبِهَا مِنْ غِذَاءٍ أَوْ نَوْمٍ أَوْ لَذَّةٍ أَوْ رَاحَةٍ، فَمَتَى أَغْلَقْتَ هَذَا الْبَابَ حَصَلَ الْأَمَانُ مِنْ دُخُولِ الْعَدُوِّ مِنْهُ.

- الثانية: الغفلة؛ فَإِنَّ الذَّاكِرَ فِي حِصْنِ الذِّكْرِ، فَمَتَى غَفَلَ فَتَحَ بَابَ الْحِصْنِ، فَوَلَجَهُ الْعَدُوُّ، فَيَعْسُرُ عَلَيْهِ أَوْ يَصْعَبُ إِخْرَاجُهُ.

- الثالثة: تَكْلُفُ مَا لَا يَعْنِيهِ مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ.

فائدة: [ما يحتاجه طالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة]

طَالِبُ النَّفُوذِ إِلَى اللَّهِ وَالْدارِ الْآخِرَةِ - بَلْ وَإِلَى كُلِّ عِلْمٍ وَصَنَاعَةٍ وَرِئَاسَةٍ؛ بَحِثْ يَكُونُ رَأْسًا فِي ذَلِكَ مُقْتَدِيٌّ بِهِ فِيهِ - يَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ:

- شَجَاعًا، مَقْدَامًا، حَاكِمًا عَلَى وَهْمِهِ، غَيْرَ مَقْهُورٍ تَحْتَ سُلْطَانِ تَخَيُّلِهِ.

- زَاهِدًا فِي كُلِّ مَا سِوَى مَطْلُوبِهِ.

- عَاشِقًا لِمَا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ.

- عَارِفًا بِطَرِيقِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَالطَّرِيقِ الْقَوَاطِعِ عَنْهُ.

- مَقْدَامَ الْهَمَّةِ، ثَابِتَ الْجَاشِ، لَا يَشْنِيهِ عَنْ مَطْلُوبِهِ لَوْمٌ لَائِمٌ، وَلَا عَذْلٌ عَازِلٌ.

- كثير السكون، دائم الفكر.
- غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم.
- قائماً بما يحتاج إليه من أسباب معونته.
- لا تستفزه المعارضات، شعاره الصبر، وراحته التعب.
- محباً لمكارم الأخلاق.
- حافظاً لوقته.
- لا يخالط الناس إلا على حذر؛ كالطائر الذي يلتقط الحب بينهم.
- قائماً على نفسه بالرغبة والرغبة.
- طامعاً في نتائج الاختصاص على بني جنسه.
- غير مُرسِل شيئاً من حواسه عبثاً، ولا مُسرّحاً خواطره في مراتب الكون.
- وملاك ذلك هجر العوائد، وقطع العلائق الحائلة بينك وبين المطلوب.
- وعند العوام أن لزوم الأدب مع الحجاب خير من أطراح الأدب مع الكشف.

فائدة: [أفضل الذكر وأنفعه]

- * من الذاكرين مَنْ يبتدئ بذكر اللسان وإن كان على غفلة، ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطأ على الذكر.
- * ومنهم مَنْ لا يرى ذلك ولا يبتدئ على غفلة، بل يسكن حتى يحضر قلبه، فيشرع في الذكر بقلبه، فإذا قوي استتبع لسانه فتواطأ جميعاً.
- فالأول: ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه.

• والثاني: ينتقل من قلبه إلى لسانه، من غير أن يخلو قلبه منه، بل يسكن أولاً حتى يحس بظهور الناطق فيه، فإذا أحس بذلك نطق قلبه، ثم انتقل النطق القلبي إلى الذكر اللساني، ثم يستغرق في ذلك حتى يجد كل شيء منه ذاكراً. وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده.

فصل: [أنفع الناس للناس]

أنفع الناس لك: رجل مكنك من نفسه حتى تزرع فيه خيراً أو تصنع إليه معروفاً، فإنه نعم العون لك على منفعتك وكمالك، فانتفاعك به في الحقيقة مثل انتفاعه بك أو أكثر، وأضر الناس عليك من مكن نفسه منك حتى تعصي الله فيه، فإنه عون لك على مضرتك ونقصك.

فصل: [في الدواء من اللذة المحرمة وثقل الطاعة على النفس]

اللذة المحرمة ممزوجة بالقبح حال تناولها، ثمرة للألم بعد انقضائها؛ فإذا اشتدت الداعية منك إليها ففكر في انقطاعها وبقاء قبحها وألمها؛ ثم وازن بين الأمرين، وانظر ما بينهما من التفاوت.

والتعب بالطاعة ممزوج بالحسن، ثمرة للذة والراحة؛ فإذا ثقلت على النفس ففكر في انقطاع تعبها وبقائها حسنها ولذتها وسرورها، ووازن بين الأمرين، وأثر الرأجح على المرجوح؛ فإن تألمت بالسبب فانظر إلى ما في المسبب من الفرحه والسرور واللذة يهن عليك مقاساته، وإن تألمت بترك اللذة المحرمة، فانظر إلى الألم الذي يعقبه، ووازن بين الأكمين.

وخاصية العقل تحصيل أعظم المنفعتين بتفويت أذناهما، واحتمال أصغر الأكمين لدفع أعلاهما.

وهذا يحتاج إلى عِلْمٍ بالأسبابِ ومقتضياتِها، وإلى عَقْلٍ يختارُ به الأولَى والأَنْفَعَ له منها؛ فَمَنْ وَفَرَ قِسْمُهُ من العقل والعِلْمِ اختارَ الأَفْضَلَ وآثَرَهُ، وَمَنْ نَقَصَ حِظَّهُ منهما أو من أحدهما اختارَ خِلَافَهُ، وَمَنْ فَكَّرَ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ عِلْمَ أَنَّهُ لَا يَنَالُ واحداً منهما إلا بِمَشَقَّةٍ؛ فَلْيَتَحَمَّلِ المَشَقَّةَ لِخَيْرِهما وأبْقَاهُما.

فصل: [حفظ الجوارح]

لِلَّهِ عَلَى الْعَبْدِ في كُلِّ عَضْوٍ من أَعْضَائِهِ أَمْرٌ، وله عَلَيْهِ فِيهِ نَهْيٌ، وله فِيهِ نِعْمَةٌ، وله به مَنَفْعَةٌ وَلَذَّةٌ، فَإِنْ قَامَ لِلَّهِ فِي ذَلِكَ الْعَضْوِ بِأَمْرِهِ، واجْتَنَبَ فِيهِ نَهْيَهُ؛ فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ فِيهِ وَسَعَى فِي تَكْمِيلِ انْتِفَاعِهِ وَلَذَّتِهِ بِهِ، وَإِنْ عَطَّلَ أَمْرَ اللَّهِ وَنَهْيَهُ فِيهِ؛ عَطَّلَهُ اللَّهُ من انْتِفَاعِهِ بِذَلِكَ الْعَضْوِ، وجَعَلَهُ من أَكْبَرِ أَسْبَابِ أَلَمِهِ وَمُضَرَّتِهِ.

وله عَلَيْهِ في كُلِّ وَقْتٍ من أَوْقَاتِهِ عِبُودِيَّةٌ تَقْدُمُهُ إِلَيْهِ وَتُقَرِّبُهُ مِنْهُ، فَإِنْ شَغَلَ وَقْتَهُ بِعِبُودِيَّةِ الْوَقْتِ تَقَدَّمَ إِلَى رَبِّهِ، وَإِنْ شَغَلَهُ هَوًى أَوْ رَاحَةً وَبَطَالَةً تَأَخَّرَ، فَالْعَبْدُ لَا يَزَالُ فِي تَقَدُّمٍ أَوْ تَأَخُّرٍ وَلَا وَقُوفَ في الطَّرِيقِ الْبَتَّةَ، قال تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مَسْكُورٌ أَنْ يَفْدَمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧].

فصل: [افتراق الخلق فرقتين]

أَقَامَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ هَذَا الْخَلْقَ بَيْنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ؛ فَافْتَرَقُوا فرقتين:

* فرقةٌ قَابِلَتْ أَمْرَهُ بِالترُّكِ، وَنَهْيَهُ بِالازْتِكَابِ، وَعَطَاءَهُ بِالْغَفْلَةِ عَنِ الشُّكْرِ، وَمَنْعَهُ بِالسُّخْطِ وَهَوْلَاءِ أَعْدَائِهِ، وَفِيهِمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ بِحَسَبِ مَا فِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ.

* وَقَسَمَ قَالُوا: إِنَّمَا نَحْنُ عِبِيدُكَ؛ فَإِنْ أَمَرْتَنَا سَارَعْنَا إِلَى الْإِجَابَةِ، وَإِنْ نَهَيْتَنَا أَمْسَكْنَا نَفُوسَنَا وَكَفَفْنَاهَا عَمَّا نَهَيْتَنَا عَنْهُ، وَإِنْ أَعْطَيْتَنَا حَمْدَنَاكَ، وَإِنْ مَنَعْتَنَا تَضَرَّعْنَا إِلَيْكَ وَذَكَرْنَاكَ.

فليس بين هؤلاء وبين الجنة إلا ستر الحياة الدنيا، فإذا مَرَقَهُ عليهم الموت، صاروا إلى النعيم المقيم وقرّة العين، كما أن أولئك ليس بينهم وبين النار إلا ستر الحياة، فإذا مَرَقَهُ الموت صاروا إلى الحسرة والألم.

فإذا تصادمت جيوش الدنيا والآخرة في قلبك، وأردت أن تعلم من أي الفريقين أنت، فانظر مع من تميل منهما، ومع من تقابل، إذ لا يمكنك الوقوف بين الجيشين، فأنت مع أحدهما لا محالة.

فالفريق الأول استعشوا الهوى فخالفوه، واستنصحو العقل فشاؤروه، وفرغوا قلوبهم للفكر فيما خلقوا له، وجوارحهم للعمل بما أمروا به، وأوقاتهم لِعِمَارَتِهَا بما يعمر منازلهم في الآخرة، واستظهروا على سرعة العمل بالمبادرة إلى الأعمال، وسكنوا الدنيا وقلوبهم مسافرة عنها، واستوطنوا الآخرة قبل انتقالهم إليها.

واهتموا بالله وطاعته على قدر حاجتهم إليه، وتزودوا للآخرة على قدر مقامهم فيها، فعجل لهم سبحانه من نعيم الجنة وروحها أن انسهم بنفسه، وأقبل بقلوبهم إليه، وجمعها على محبته، وشوقهم إلى لقاءه ونعمهم بقربه، وفرغ قلوبهم مما ملأ قلوب غيرهم من محبة الدنيا، والهَمَّ والحزن على فوتها، والغم من خوف ذهابها، فاستلأنوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدانهم والملا الأعلى بأرواحهم.

فصل : [التوحيد الطف شيء، فادنى شيء يخدشه]

التوحيد أطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه؛ فادنى شيء يخدشه ويدنسه، ويؤثر فيه؛ فهو كأيض ثوب يكون، يؤثر فيه أدنى أثر، وكالمراة الصافية جدا، أدنى شيء يؤثر فيها، ولهذا تشوشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفية؛ فإن بادر صاحبه

وقلَع ذلك الأثر بِضِدِّهِ، وإلَّا اسْتَحْكَمَ وصَارَ طَبْعًا يَتَعَسَّرُ عليه قَلْعُهُ.

وهذه الآثار والطُّبُوعُ التي تحُصِّلُ فيه:

✱ منها ما يكونُ سَرِيعَ الحُصُولِ سَرِيعَ الزَّوَالِ.

✱ ومنها ما يكونُ سَرِيعَ الحُصُولِ بَطِيءَ الزَّوَالِ.

✱ ومنها ما يكونُ بَطِيءَ الحُصُولِ سَرِيعَ الزَّوَالِ.

✱ ومنها ما يكونُ بَطِيءَ الحُصُولِ بَطِيءَ الزَّوَالِ.

• ولكن من النَّاسِ مَنْ يكونُ تَوْحِيدُهُ كَبِيرًا عَظِيمًا، يَنْغَمِرُ فيه كَثِيرٌ من تلك الآثارِ وَيَسْتَحِيلُ فيه، بِمَنْزِلَةِ المَاءِ الكَثِيرِ الَّذِي يُخَالِطُهُ أَدْنَى نَجَاسَةٍ أَوْ وَسَخٍ، فَيَغْتَرُّ به صَاحِبُ التَّوْحِيدِ الَّذِي هو دُونُهُ؛ فَيَخْلِطُ تَوْحِيدَهُ الضَّعِيفَ بِمَا خَلَطَ به صَاحِبُ التَّوْحِيدِ العَظِيمِ الكَثِيرِ تَوْحِيدَهُ؛ فَيَظْهَرُ من تأثيره ما لم يَظْهَرُ في التَّوْحِيدِ الكَثِيرِ.

• وأيضًا فإنَّ المَحَلَّ الصَّافِي جدًّا يَظْهَرُ لصاحبه مِمَّا يَدْنُسُهُ مَا لَا يَظْهَرُ في المَحَلِّ الَّذِي لم يَبْلُغْ في الصَّفَاءِ مَبْلَغَهُ؛ فَيَتَدَارَكُهُ بِالْإِزَالَةِ دُونَ هذا؛ فَإِنَّهُ لَا يَشْعُرُ به.

• وأيضًا فإنَّ قُوَّةَ الإِيْمَانِ والتَّوْحِيدِ إذا كانت قَوِيَّةً جدًّا، أَحَالَتْ المَوَادَّ الرَّدِيئَةَ وَقَهَرَتْهَا؛ بخلافِ القُوَّةِ الضَّعِيفَةِ.

• وأيضًا فإنَّ صَاحِبَ المَحَاسِنِ الكَثِيرَةِ والغَامِرَةِ للسَّيِّئَاتِ يُسَامَحُ بما لَا يُسَامَحُ به مَنْ أَتَى مِثْلَ تلك السَّيِّئَاتِ، وليست له مِثْلُ تلك المَحَاسِنِ، كما قِيلَ:

وَإِذَا الْحَبِيبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ✱✱ جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعٍ

• وأيضًا فإنَّ صِدْقَ الطَّلَبِ وقُوَّةَ الإرَادَةِ وكمالَ الانْقِيَادِ يُحِيلُ تلك العَوَارِضَ والعَوَاشِيَّ الغَرِيبَةَ إِلَى مُقْتَضَاهُ ومُوجِبِهِ؛ كما أَنَّ الكَذِبَ وفَسَادَ الْقَصْدِ وَضَعْفَ الانْقِيَادِ يُحِيلُ الأقْوَالَ والأَفْعَالَ الممدوحةَ إِلَى مُقْتَضَاهُ ومُوجِبِهِ، كما

يُشَاهَدُ ذَلِكَ فِي الْأَخْلَاطِ الْغَالِبَةِ وَإِحَالَتِهَا لِصَالِحِ الْأَغْذِيَةِ إِلَى طَبْعِهَا.

فائدة: [فَرَّغْ قَلْبَكَ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ]

تَرَكُ الشَّهَوَاتِ لِلَّهِ - وَإِنْ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَأَوْجَبَ الْفَوْزَ بِرَحْمَتِهِ - فذخائرُ الله وكنوزُ البرِّ، ولذةُ الأنسِ والشَّوْقِ إليه، والفرح والابتهاج به لا تحصلُ في قلبٍ فيه غيره، وإن كان من أهل العبادَةِ والزُّهْدِ والعلم؛ فإن الله سبحانه أبقى أن يجعل ذخائره في قلبٍ فيه سواه، وهِمَّتُهُ متعلِّقةٌ بغيره، وإنما يُودِعُ ذخائره في قلبٍ يرى الفقرَ غنىً مع الله، والغنى فقرًا دون الله، والعزَّ ذلاًّ دونَه، والذلَّ عزاً معه، والنعيمَ عذاباً دونَه، والعذابَ نعيمًا معه.

وبالجملة: فلا يرى الحياة إلا به ومعه، والموت والألم والهمَّ والغمَّ والحزن إذا لم يكن معه، فهذا له جنتان: جنةٌ في الدنيا معجَّلةٌ، وجنةٌ يوم القيامة.

فائدة: [حَقِيقَةُ الْإِنَابَةِ]

الْإِنَابَةُ: هِيَ عُكُوفُ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ **عَزَّجَلَّ**؛ كاعتكافِ البدنِ في المسجدِ لا يُفَارِقُهُ، وحقيقة ذلك: عُكُوفُ الْقَلْبِ عَلَى مُحَبَّتِهِ وَذِكْرِهِ بِالْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ، وعكوفُ الجوارحِ عَلَى طَاعَتِهِ بِالْإِخْلَاصِ لَهُ وَالْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْكُفْ قَلْبُهُ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ عَكَفَ عَلَى التَّمَاثِيلِ الْمُتَنَوِّعَةِ؛ كَمَا قَالَ إِمَامُ الْحَنْفَاءِ لِقَوْمِهِ: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ هَلَا عَلَيْكُمُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

قاعدة نافعة: [انفع الفكر]

أصلُ الخيرِ والشرِّ من قَبْلِ التَّفَكُّرِ، فَإِنَّ الْفِكْرَ مَبْدَأُ الْإِرَادَةِ وَالطَّلَبِ فِي الزُّهْدِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْحُبِّ وَالبَغْضِ.

وَأَنْفَعُ الْفِكْرِ:

• الفكرُ في مصالحِ المعادِ.

• وفي طرقِ اجتلابِها.

• وفي دفعِ مفسدِ المعادِ.

• وفي طرقِ اجتنابِها.

فهذه أربعةُ أفكارٍ هي أَجَلُ الأفكارِ.

ويليها أربعةٌ:

○ فكرٌ في مصالحِ الدُّنيا وطرقِ تحصيلِها.

○ وفكرٌ في مفسدِ الدنيا وطرقِ الاحترازِ منها.

فعلى هذه الأقسامِ الثمانية دارتْ أفكارُ العقلاءِ.

فصل: [جوامع الخير]

• الطلبُ لقاحِ الإيمانِ، فإذا اجتمعَ الإيمانُ والطلبُ أثمرَ العملَ الصالحَ.

• وحُسْنُ الظنِّ بالله لقاحُ الافتقارِ والاضطرارِ إليه، فإذا اجتمعَا أثمرَا إجابةَ الدعاءِ.

• والخشيةُ لقاحُ المحبةِ، فإذا اجتمعَا أثمرَا امتثالَ الأوامرِ واجتنابَ المناهي.

• والصبرُ لقاحُ اليقينِ، فإذا اجتمعَا أَوْرَثَا الإمامةَ في الدِّينِ، قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

• وصِحَّةُ الاقتداءِ بالرَّسولِ لقاحُ الإخلاصِ، فإذا اجتمعَا أثمرَا قبولَ العملِ

والاعتدَادَ به.

• والعملُ لقاحِ العلمِ، فإذا اجتمعَا كَانَ الفلاحُ والسعادةُ، وإن انفردَ أحدهما

عن الآخر لم يُفد شيئاً.

• والحلم لقاح العلم، فإذا اجتمعا حصلت سيادة الدنيا والآخرة وحصل الانتفاع بعلم العالم، وإن انفرد أحدهما عن صاحبه فات النفع والانتفاع.

• والعزيمة لقاح البصيرة، فإذا اجتمعا نال صاحبهما خير الدنيا والآخرة، وبلغت به همته من العلياء كل مكان.

فتخلف الكمالات؛ إما من عدم البصيرة وإما من عدم العزيمة.

• وحسن القصد لقاح لصحة الذهن، فإذا فقد الخير كله، وإذا اجتمعا أثمر أنواع الخيرات.

• وصحة الرأي لقاح الشجاعة، فإذا اجتمعا كان النصر والظفر، وإن فقدوا فالخذلان والخيبة، وإن وجد الرأي بلا شجاعة؛ فالجبن والعجز، وإن حصلت الشجاعة بلا رأي؛ فالتهور والعطب^(١).

• والصبر لقاح البصيرة، فإذا اجتمعا فالخير في اجتماعهما.

قال الحسن: إذا شئت أن ترى بصيراً لا صبراً له رأيت، وإذا شئت أن ترى صابراً لا بصيرة له رأيت، فإذا رأيت صابراً بصيراً فذاك.

• والنصيحة لقاح العقل، فكلما قويت النصيحة قوي العقل واستنار.

• والتذكر والتفكير كل منهما لقاح الآخر، إذا اجتمعا أنتجا الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

• والتقوى لقاح التوكل، فإذا اجتمعا استقام القلب.

(١) العطب: الهلاك.

- ولقأح أَخَذَ أَهْبَةَ الاستعدادِ لِلْقَاءِ قِصْرُ الأَمَلِ، فإذا اجتمعَا فالخيرُ كُلُّهُ في اجتماعِهما، والشرُّ في فُرْقَتِهما.
- ولقأح الهَمَّةُ العَالِيَةُ النِّيَّةُ الصَّحِيحَةُ، فإذا اجتمعَا بلغَ العبدُ غَايَةَ المرادِ.

قاعدة: [حالنا مع الصلاة]

للعبدِ بينَ يدي الله موقفان:

* موقفٌ بينَ يديه في الصلاة.

* وموقفٌ بينَ يديه يومَ لقائه.

فَمَنْ قَامَ بِحَقِّ الموقِفِ الأوَّلِ هَوَّنَ عليه الموقِفُ الآخرُ، وَمَنِ استهانَ بهذا الموقِفِ ولم يُوفِّهِ حقَّه شَدَّدَ عليه ذلك الموقِفُ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۝٢٦﴾ إِنَّكَ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ [الإنسان: ٢٦ - ٢٧].

قاعدة: [الفرق بين لذة الدنيا ولذة الآخرة]

اللَّذَّةُ - من حيث هي - مطلوبةٌ للإنسانِ، بل ولكلِّ حيٍّ، فلا تُذَمُّ من جهة كونها لَذَّةً، وإنَّما تُذَمُّ ويكونُ تركُها خيرًا من نيلِها وأنفعُ إذا تَضَمَّنَتْ فَوَاتَ لَذَّةٍ أعظمَ منها وأكملَ، أو أعقبتُ أَلَمًا حصولُهُ أعظمُ من أَلَمِ فَوَاتِهَا. فهاهنا يظهرُ الفرقُ بينَ العاقلِ الفَطِنِ، والأحمقِ الجاهلِ، فمتى عَرَفَ العقلُ التفاوتَ بينَ اللَّذَّتَيْنِ والألمينِ وأنه لا نسبةَ لأحدهما إلى الآخرِ؛ هانَ عليه تركُ أدنى اللَّذَّتَيْنِ لتحصيلِ أعلاهما، واحتمالِ أيسرِ الألمينِ لدفعِ أعلاهما.

وإذا تَفَرَّرَتْ هذه القاعدةُ فَلَذَّةُ الآخرةِ أعظمُ وأدومُ، وَلَذَّةُ الدنيا أصغرُ وأقصرُ، وكذلك أَلَمُ الآخرةِ وأَلَمُ الدنيا، والمعوَّلُ في ذلك على الإيمانِ واليقينِ،

فإذا قويَ اليقينُ وباشَرَ القلبُ أثرَ الأعلى على الأدنى في جانبِ اللذة، واحتمَلَ الأَلمَ الأسهلَ على الأصعبِ، واللهُ المستعانُ.

فائدة: [أدب الأنبياء في الدعاء]

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، جمع في هذا الدعاء بين:

* حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربِّه ووجود طعم المحبة في التملُّق له.

* والإقرار له بصفة الرحمة، وأنَّه أرحم الراحمين والتوسل إليه بصفاته سبحانه.

* وشدة حاجته هو وفقره.

ومتى وجدَ المبتلى هذا كُشِفَتْ عنه بلواه.

وقد جُرِّبَ أَنَّهُ من قالها سبعَ مرات - ولا سيما مع هذه المعرفة - كشفَ اللهُ ضُرَّهُ.

فائدة: [في دعاء يوسف]

قوله تعالى عن يوسف نبيِّه أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، جمعت هذه الدعوة:

• الإقرار بالتوحيد.

• والاستسلام للربِّ، وإظهار الافتقار إليه.

• والبراءة من موالاة غيره سبحانه.

- وكون الوفاة على الإسلام أَجَلَ غَايَاتِ الْعَبْدِ.
- وَأَنَّ ذَلِكَ بِيَدِ اللَّهِ لَا بِيَدِ الْعَبْدِ.
- والاعتراف بالمعاد.
- وطلب مرافقة السعداء.

فائدة: [ففروا إلى الله]

قول الله تعالى: ﴿وَلِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خِزْيُنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]، مُتَضَمِّنٌ لِكُنْزٍ مِنَ الْكُنُوزِ؛ وهو أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ لَا يُطْلَبُ إِلَّا مِمَّنْ عِنْدَهُ خِزْيُنُهُ، ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وَأَنَّ طلبه من غيره طلبٌ مِمَّنْ لَيْسَ عِنْدَهُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ.

وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] متضمِّنٌ لِكُنْزٍ عَظِيمٍ، وهو أَنَّ كُلَّ مُرَادٍ إِنْ لَمْ يُرَدْ لِأَجَلِهِ وَيَتَّصِلْ بِهِ فهو مضمحلٌ منقطع؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ إِلَيْهِ الْمُنْتَهَى، وليس المنتهى إِلَّا إِلَى الَّذِي انْتَهَتْ إِلَيْهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا، فانتَهَتْ إِلَى خَلْقِهِ وَمَشِيئَتِهِ وحكمته وعلمه، فهو غَايَةُ كُلِّ مَطْلُوبٍ، وكلُّ محبوبٍ لَا يُحِبُّ لِأَجَلِهِ فمحبته عناءٌ وعذابٌ، وكلُّ عملٍ لَا يُرَادُّ لِأَجَلِهِ فهو ضائعٌ وباطلٌ، وكلُّ قلبٍ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ فهو شقيٌّ محجوبٌ عن سعادته وفلاحه.

فاجتمع ما يُرَادُّ مِنْهُ كُلُّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خِزْيُنُهُ﴾، واجتمع ما يُرَادُّ لَهُ كُلُّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾، فليس وراءه سبحانه غَايَةُ تَطْلُبُ، وليس دُونَهُ غَايَةُ إِلَيْهَا الْمُنْتَهَى.

وتحت هذا سرٌّ عظيمٌ من أسرار التوحيد، وهو أَنَّ الْقَلْبَ لَا يَسْتَقِرُّ وَلَا يَطْمئنُّ وَيَسْكُنُ إِلَّا بِالْوَصُولِ إِلَيْهِ، وكلُّ ما سِوَاهُ مما يُحِبُّ وَيُرَادُّ فمرادٌ لغيره.

وليس المرادُ المحبوبُ لذاته إِلَّا وَاحِدًا إِلَيْهِ الْمُنْتَهَى، ويستحيلُ أَنْ يَكُونَ

المنتهى إلى اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره: بطل عليه ذلك، وزال عنه وفارقه أحوج ما كان إليه، ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبتة وطلبه هو سبحانه: ظفر بنعيمه ولدته وبهجته وسعادته أبد الآباد.

قاعدة جليلة: [أسباب التوفيق والخذلان]

فكرت في هذا الأمر فإذا أصله أن تعلم أن النعم كلها من الله وحده، نعم الطاعات ونعم اللذات، فترغب إليه أن يلهمك ذكرها ويوزعك شكرها، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال: ﴿فَاذْكُرُواْ آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال: ﴿وَأَشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

وكما أن تلك النعم منه ومن مجرد فضله، فذكرها وشكرها لا يُنال إلا بتوفيقه.

والذنوب من خذلانه وتخليه عن عبده وتخليته بينه وبين نفسه، وإن لم يكشف ذلك عن عبده فلا سبيل له إلى كشفه عن نفسه، فإذا هو مضطراً إلى التضرع والابتهاال إليه أن يدفع عنه أسبابها حتى لا تصدر منه، وإذا وقعت بحكم المقادير ومقتضى البشرية فهو مضطراً إلى التضرع والدعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها، فلا ينفك العبد عن ضرورته إلى هذه الأصول الثلاثة، ولا فلاح له إلا بها: الشكر، وطلب العافية، والتوبة النصوح.

ومما ينبغي أن يُعلم: أن أسباب الخذلان مع بقاء النفس على ما خلقت عليه في الأصل وإهمالها وتخليتها، فأسباب الخذلان منها وفيها، وأسباب التوفيق من جعل الله سبحانه لها قابلة للنعمة، فأسباب التوفيق منه ومن فضله، وهو الخالق

لهذه وهذه، كما خلق أجزاء الأرض، هذه قابلة للنبات وهذه غير قابلة له، وخلق الشجر، هذه تقبل الثمرة وهذه لا تقبلها، وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراباً مختلف ألوانه، والزنبور غير قابل لذلك، وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره ومحبه وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك، بل لضده، وهو الحكيم العليم.

فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع

- مقدمة المختصر ٥
- مقدمة المؤلف ٧
- قاعدة جلية: كيف تتنفع بالقرآن؟ ٧
- فصل: جمع سورة ق لأصول الإيمان ٨
- فائدة جلية: في تسخير الله الأرض للإنسان ١٠
- فائدة: أسباب سعادة الإنسان ١١
- فائدة: كيف تعرف ربك؟ ١٣
- فائدة: دعاء الهم والحزن ١٤
- فائدة: تأملات في خطاب القرآن ١٧
- فائدة: نظرات في سورة التكاثر ١٨
- تنبيه: عبر ومواعظ ٢٠
- فصل: في إقرار العبد بالإساءة والتقصير ٢٢
- فائدة: أنواع الغيرة ٢٣
- فصل: حقيقة الدنيا ٢٤
- فصل: أعجب الأشياء ٢٥
- فائدة: أسباب الوقوع في الحرام ٢٦
- فصل: ظهر الفساد في البر والبحر ٢٦

- قاعدة: من فوائد التوحيد ٢٨
- فائدة: أعظم اللذات ٢٩
- قاعدة: الحبسُ المحمود ٢٩
- فائدة جليلة: في الجمع بين تقوى الله وحسن الخلق ٣٠
- فائدة جليلة: الطريق إلى الله ٣٠
- قاعدة: فضل كلمة الإخلاص عند الموت ٣٠
- ماذا تملك من أمرك؟ ٣١
- عناية الله بالإنسان ٣٢
- فصل: كيف تحقق مصالح الدنيا والآخرة ٣٢
- فائدة: في الجمع بين المآثم والمغرم ٣٣
- فائدة: أكمل الناس هداية ٣٣
- فصل: أعلى الهمم ٣٤
- صفة علماء السوء ٣٤
- فصل: فتح مكة ٣٤
- فصل: عبر ومواعظ ٣٦
- فصل: أول المخلوقات وآخرهم ٣٧
- فصل: في تجلي الله في القرآن لعباده بصفاته ٣٨
- تنبيه: عبر ومواعظ ٤١
- تنبيه: أمراض النفس ٤١
- فصل عبر ومواعظ ٤٢

- فصل: أصول المعاصي ٤٣
- فصل: أنواع هجر القرآن ٤٤
- فائدة جلية: فرّغ قلبك للآخرة ٤٤
- فائدة: العلم والعمل ٤٥
- قاعدة: ظاهر الإيمان وباطنه ٤٦
- قاعدة: أنواع التوكل وحقيقته ٤٧
- فائدة: غاية الجهل ٤٨
- قاعدة جلية: الاستجابة لله وللرسول ٤٩
- فائدة جلية: أنفع الأشياء مخالفة النفس ٤٩
- فائدة: الزهد في الدنيا ٥١
- قاعدة: أساس كل خير ٥٣
- فائدة جلية: مفسد إيثار الدنيا ٥٤
- فصل ٥٤
- فائدة عظيمة: أفضل ما اكتسبته النفوس ٥٦
- فصل: الإيمان بين الدَّعْوَى والحقيقة ٥٦
- فائدة جلية: ترك المألوفات لله ٥٨
- أسباب السعادة ٥٩
- قاعدة جلية: سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين ٥٩
- فصل: أعظم الإضاعات ٦٠
- فصل: أحبُّ الخلق إلى الله ٦١

- نصيحة: أقرب الطرق إلى الجنة ٦٢
- فصل: كُنْ مع الله ٦٣
- فصل: أقسام الزهد ٦٣
- فائدة جليّة: ترك الأمر أعظم عند الله من ارتكاب النهي ٦٤
- فصل: بين الذكر والشكر ٦٦
- فصل: سبب الهداية والضلال ٦٧
- فصل: إياك والكذب! ٦٨
- فصل: في قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ٦٩
- فصل: لا يتنفع بالإيمان والعلم إلا من عرف ربه ووقف على قدر نفسه ٧٠
- فصل: مضارّ الشهوات ٧٢
- فصل: حدود الأخلاق ٧٢
- فصل: أصل الأخلاق المذمومة والمحمودة ٧٤
- فصل: المطلب الأعلى موقوف حصوله على همة عالية ونية صحيحة ٧٦
- فصل: دواعي الإخلاص ٧٦
- فصل: أكمل الناس لذة ٧٧
- من فوائد ترك الذنوب والمعاصي ٧٨
- فصل: الوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد وقطع العوائق والعلائق .. ٧٩
- فصل: حاجة الخلائق إلى الرسول ﷺ ٨١
- فصل: من علامات السعادة والفلاح ٨١
- فصل: من أراد علوّ بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه ٨٢

- فصل: أركان الكفر الأربعة ٨٥
- فصل: غراس العمر ٨٦
- فصل: حياة الأرواح ٨٧
- فصل في دعوة العارف للناس ٨٨
- فصل عبر ومواعظ ٨٨
- فصل: أنواع معرفة الله ٨٩
- فصل: أنواع الدراهم ٨٩
- فصل: أنواع المواساة للمؤمنين ٩٠
- فصل: في تبعات الجهل بالطريق وآفاته ٩٠
- فصل: في الخوادم والقواطع في طريق السفر إلى الله ٩١
- فصل: أقسام النعم ٩٢
- قاعدة جليلة: أهمية الخواطر والتصورات ٩٣
- فائدة: أصناف الناس في معرفة الله ٩٤
- فائدة: لا تملّوا النعم ٩٥
- فصل: في معرفة الله بالجمال ٩٦
- فصل ٩٨
- فصل: الصدق مع الله ٩٩
- فصل: أعظم الظلم والجهل ٩٩
- فائدة: السفر إلى الله تعالى ١٠٠
- فصل: من مداخل الشيطان على العبد ١٠١

- فائدة: ما يحتاجه طالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة ١٠١
- فائدة: أفضل الذكر وأنفعه ١٠٢
- فصل: أنفع الناس للناس ١٠٣
- فصل: في الدواء من اللذة المحرمة وثقل الطاعة على النفس ١٠٣
- فصل: حفظ الجوارح ١٠٤
- فصل: افتراق الخلق فرقتين ١٠٤
- فصل: التوحيد ألطف شيء، فأدنى شيء يخدشه ١٠٥
- فائدة: فرغ قلبك من غير الله ١٠٧
- فائدة: حقيقة الإنابة ١٠٧
- قاعدة نافعة: أنفع الفكر ١٠٧
- فصل: جوامع الخير ١٠٨
- قاعدة: حالنا مع الصلاة ١١٠
- قاعدة: الفرق بين لذة الدنيا ولذة الآخرة ١١٠
- فائدة: أدب الأنبياء في الدعاء ١١١
- فائدة: في دعاء يوسف ١١١
- فائدة: ففروا إلى الله ١١٢
- قاعدة جلية: أسباب التوفيق والخذلان ١١٣
- فهرس الموضوعات ١١٥